مقالات

عبد الله بن عبد العزيز الهدلق

ميراث الصَّمت والملَكُوت

ميراث الصّمت والملَكوت..

عبد الله بن عبد العزيز الهدلق

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الهدلق، عبد الله عبد العزيز إبراهيم

ميراث الصمت والملكوت./ عبد الله عبد العزيز إبراهيم الهدلق.–

الرياض ١٤٣١هـ

١٨١ ص؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٨ـ ٥٤٥٥ـ ٠٠ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

١ – المقالات العربية ـ السعودية أ. العنوان

ديوي ٠٨١ ١٤٣١ / ٥٨١٠

رقم الإيداع: ١٤٣١ / ٥٨١٠

ردمك: ٨ـ ٥٤٥٥ـ ٠٠ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

ميراث الصّمت والملَكوت..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾..

هذا الذي لم يكن شَيئاً مذكوراً؛ وَيْحَه يُحِبُّ الذِّكْر..

المقدّمة..

«إنني أنتمي إلى جيل الرّهانات الخاسرة، فجيلُنا قد راهن على القوميّة، وعلى الثّورة، وعلى الاشتراكيّة، وهو يراهن اليوم على الديموقراطيّة؛ لا لقيمٍ ذاتيةٍ في هذه المفاهيم، بل كمطايا إلى النهوض العربيّ وإلى تجاوز الفَوات الحضاريّ». طرابيشي

الفِكر حين يتحوّل إلى قوّة تاريخيّة

في قصّة الحضارة: «أنّ امرأةً تُدعى نينون دلّانكلو عاشت في عصر لويس الرابع عشر ١٦٤٣-١٧١٥ حياةً فاضحةً متهتّكة..

إلا أنّ تلك الحياةَ لم تمنعها من أن تلتقط قدراً من المعرفة لا يُستهان به، وأن تفتح صالوناً أدبيّاً تقاطر عليه أربابُ الأدب

والفنّ والسياسة، حتى أذهلتْ باريسَ كلَّها بما أبدت من ذكاءٍ ومعرفة، بل إنّها أثارت فضولَ الملك نفسه فاستمع إليها في قصره من وراء ستار.

عُمِّرت نينون بعد أصدقائها كلِّهم تقريباً، فلما دَنَتْ منيّتها تنافس اليسوعيون والجانسنيون على هدايتها، فاستسلمت لهم في لطفٍ وماتت في أحضان الكنيسة.

لم تترك في وصيّتها ـ على ما بلغته من ثراءٍ ـ سوى مالٍ يسير لجنازتها حتى تكون أبسطَ ما يُستطاع، ولكنها كتبت: «أطلبُ في تواضُعٍ إلى المسيو لارويه ـ وكان وكيلَها ـ أن يسمح لي بأن أترك لابنه الذي يتلقّى العلم عند اليسوعيين ألفَ فرنكٍ ليشتريَ بها كتباً».

قال ديورانت: واشترى الابنُ الكتب، وقرأَها، وأصبح فولتير![1]

إنّ التجربةَ الغربيةَ تحدٍّ حضاريٌّ حافز، وليستْ مثلاً أعلى أغلقتْه صيرورةُ التاريخ..

إن لم نقل بذلك؛ فإنّ هذا الموقفَ الحضاريَّ: «سيجعلنا بشراً من الدّرجة الثالثة بشكلٍ دائم، وإن حثثنا الخطى أصبحنا بشراً من

(١) وِل وإيريل ديورانت، **قصّة الحضارة**، ٣١/ ٤٨ «بتصرّف واختصار».

الدّرجة الثانية، وهذا أقصى ما نطمح إليه، لأنّ الدّرجة الأولى هي الغربُ ذاته الذي يتحرّك باستمرارٍ في الاتجاه الذي قرّره لنفسه»[1].

الثّورة على بؤس الطين

«لم يكن الفقرُ قطُّ نكبةً بالنسبة لي، فقد كان يوازيه دائماً غنى النّور..

حتى ثوراتي كانت آنذاك تضاءُ بهذا النّور.

لستُ أجزم أن قلبي كان من طبعه أن يميل إلى هذا الضَّرْب من الحبّ، غير أن الظروف ساعدتني فوضعتني في منتصف الطريق بين الفقر والشمس.

أما الفقر: فمنع عنّي الحكمَ بأن كلَّ ما في العالم هو على ما يرام، وأما الشمس: فعلّمتني أنّ التاريخ ليس هو كلَّ شيء». كامو

أَتَعرف.. قبل ثنتين وعشرين سنةً انتبهتُ فإذا الدنيا قد طمرتْ روحي بِطين القُبح والخَيبة، قد غمرتْها بالماء الآسن.. فأمضيتُ

---

(١) عبدالوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، ص٤٥٢.

في شهر نيسان (أبريل) من عام ١٩٣٠م عُقدت في الجامعة المصرية مناظرةٌ بين عباس محمود العقّاد وسلامة موسى بشأنِ بيت الشاعر الإنجليزي ريدارد كبلنغ: «الشرق شرق، والغرب غرب.. ولن يلتقي الاثنان»، وقد أيّد العقّادُ رأيَ كبلنغ ونال ٢٢٨ صوتاً، في حين عارضه سلامة موسى ونال ١٣٢ صوتاً.. نبيل عبدالجبار، النّزعة العلمية في الفكر العربي الحديث، ص٣٢٢.

عدّة أشهر تجمّعتُ خلالها في زاوية مظلمة من زوايا روحي، وذهبتُ أنزف الصمت والحياة ببطء، أغلقت عينيّ، وظننتُ أنها نهاية حياة ابتدأت قريباً لتوّها.

لكنَّ المِحَن - كما قيل - معلِّمٌ كبير، وإن كان هذا المعلِّم يتقاضى غالياً ثمن دروسه، لا أدري كيف دبّت حياةٌ في جِذع ذاك الرّوح اليابس، نورٌ أَوْمَضَ لي في غَيْهَب الملَكوت.. فتوكأتُ على نفسي ومشيتُ أرقبه لا ألوي على شيء، خضتُ الغَمَراتِ أقصِد نحو فكرةٍ مبهمة، فكرةٍ تقارب في وَعْي حَذِرٍ ما تشبه فلسفتُه أن تكون: القراءةُ بديلٌ عن الحياة..

الثّورة على بؤس الطّين؛ ذلك ما أدعوه تَوثُّبَ الرُّوح للشخصية النّامية في مفاصِل حياتها الكبرى.. يوم تعرَّت روحي؛ بصقتُ الماء الآسن في وجه الدنيا، وطَفِقْتُ أخصِفُ عليَّ من ورق المعرفة.

ذهبتُ أرود المكتبات لا أعرف أكثر هذا الذي على رفوفها، وكنتُ أتألم لألم الجهل، ما زلتُ أذكر حَيرتي يوماً وقفتُ فيه عند عنوان غريب على الرفّ: ما هذا؟ ما معناه؟ وبكيت.. لم يكن ثمّة أحدٌ يعلّمني.

لكني مَدينٌ لتلك الأيام بأشياءَ رائعة، منها ثلاثةٌ ربما لم تتحقق لكثيرين غيري:

أولّها: أني كنتُ أحسُّ طعم الرّوح المرّ يتصاعد رويداً رويداً مع أنفاسي القديمة، فأرتعش لخفْق الرّوح الجديد بين المـوت والحيـاة، أهذا إذن ما قصدتَه يا هنري تروايا: «كنتُ أموت لأولد من جديـدٍ على نحو أفضل»!

وثانيها: أنه لـيس لأحـدٍ سُـلطان عـلى عقـلي كائنـاً مـن كـان، إذ إنــه كثـيراً مـا أنتجـت العـصامية الفكريـة مثقّفـاً غـير مُنتَمٍ، لكنّه متبجِّح.. «رفضتُ خيار الالتحاق بـصفوف المؤسـسة وكـيلاً مأجوراً لإحدى صناعات المعلومات».. قال غرامشي: «يَنـتج عـن الهيمنة الثقافية للبورجوازية: أن أفكار الطبقة المهيمنة تصبح بقـوّة الأشياء أفكارَ المجتمع كلّه، فلا يعود أحدٌ قادراً عـلى معارضـتها.. وحدَهم المتعلّمون جدّاً، وأصحابُ الكفاءات الفكرية العالية، هم الـذين يملكـون الوظيفـةَ الاجتماعيـة للمثقّفـين؛ وظيفـةَ تغيـير الشّعوب..».

والثالث: أني لم أسلك الجَـوَادَّ الثقافيـة التـي يـسلكها غـيري، لأني لم أكن أعرفها أصلاً «أكـاد لا أعـرف أبـداً إلا المظهـر الأكثـر سوءاً من الحياة، ولكنّي أنجح دوماً في العثور على طريقي».

ما أكثر ما أقول لمن أسـاجلهم في شـأنِ القـراءة وأمـرِ المعرفـة: احذروا الجَوَادَّ الثقافية، مَزِّقوا الصورةَ اليابـسة للمثقـف النَّمَطـيّ،

لا تحرِموا أنفسكم من «بهجة الإصابة بالدّهْشة».. وأعني بذلك: أن هناك أسماءً وموضوعاتٍ وكتباً يكثر الحديث عنها دون غيرها في كلِّ بيئة ثقافية، فينصرف بها القارئ - تقليداً بسبب النشأة الثقافية - عن كثيرٍ من الأسماء والموضوعات والكتب الحافلة، تلك التي يتراجع الحديث عنها على الأفواه والأقلام، لأسبابٍ بعضها واضح، وبعضها الآخر محيِّر.

كم وقفتُ بسلوك الطريق المهجورة، بتنكّب الجَوَادِّ هذه؛ على ما لم أكن لأوفَّق له لولا النشأة الثقافية المُرهقة، وهذه الأَنَفة المعرفية الجامحة..

أيها الطّين اللّازب، أيها الحمأ المسْنون: تلك النّار في دروب سَيناء الموحشة؛ هي التي جعلتُها وَقوداً لثوراتي..

وَقْع الهُنَيْهة في المُطلق

المطبوعة الصحفية بنتُ يومها، لذا جمعتُ هذه المقالات ـ هنا في كتابٍ ـ خوفَ أن تغيّبها الأيام..

ما أنا؟ ذَرّةٌ تائهةٌ في هذا الكون الوَسيع العَماء، هُنَيْهَةٌ في هذا اللامتناهي المطلق..

فاضْحك معي إذن ضَحِكاً رفيقاً لهذه الذَّرّة التائهة وهي تحاول الأثرَ الخالدَ في ضمير الكون، لهذه الهُنَيهَة تتمدَّد ـ وهي الهُنَيْهَة ـ لتُسامِتَ آمادَ الأبد.

.. **هذه المقالات** منها ما كان أثراً لساعته كتبتُه هكذا عفوَ الخاطر، ومنها ما كددتُ له ذهني، وأنضَيْتُ له قلمي أيّاماً.

انتخبتُها من عدَّة أعمالٍ نشرتُها في سبع مطبوعاتٍ على امتداد سبعة عشر عاماً؛ ففيها ما لا ينفكُّ عنه قلمٌ ـ ما يزال يكتب ـ من تفاوتِ القيمة العلمية والفنية، وتباينِ الحالة النفسية، وأثرِ هذه السنين..

قد كان من أسمى مقاصدي المرجوَّة من نشرها؛ أن أكشفَ لكثيرٍ من القراء عمّا لمنهجِ التفكير، والتنوُّعِ المعرفيّ، والبيانِ الوضيء؛ من أثرٍ بالغٍ على بنيةِ العقل، ونوعِ الخطاب.

نعم؛ لم أصمُد إلى هذا المقصَد مباشرة، وإنما كان إيحاؤه ماثلاً في كلِّ حرفٍ كتبتُه، إذ ربما كانت الظِّلال في اللوحة أروعَ في نَفْس المتأمِّل من وَهَج الأضواء.. «حين تصرخ في أُذُني لا أسمعك جيّداً».

لستُ أزعم أن لهذه المقالات من الخطر ما لذلك النِّتاج الأدبيِّ والفكريِّ الذي من شأنه أن يَفْتِق عن العقل.. يُقيم ويُقعِد، يَهيج

مكامنَ القُدْرة، ويُصيب مواقعَ الشُّعور، ثم يمنح القارئ ذاك الذي بعضُ معانيه أنه أصبح به شيئاً آخر على غير ما كان عليه، لا.. بيد أني أحسب أنها لا تخلو من ظلالٍ من معنى قولِ دوستويفسكي النافذ: «الكلمةُ عملٌ عظيم».

ومع أني ربيبُ ثقافة تُقبِّح ـ كما لا تفعل ثقافةٌ أخرى ـ الحديثَ عن الذّات على أيّ صورةٍ كان، ولأيّ معنىً يراد؛ إلا أن ذلك لن يمنعني من أن أزعم أني اجتهدتُ في أن أكون صادقاً في كلِّ حرف كتبتُه، لأنه: «لا شيء يشوِّه الأداء العلني للمثقّف أكثر من تغيّر الآراء تبعاً للظّروف، والتزامِ الصمت الحذِر»[1].

وبعد.. فأنا في إيمان عميق بقُدرة هذه الكلمة الصادقة ـ وحدها ـ على الرقيِّ بالوعي والكرامةِ والوجدانِ في عالم الإنسان الذليل البائس؛ بما لا تقدر عليه الأنواع الأخرى الكاثرة من سائر ضروب النشاط الإنسانيّ.. «المثقّف في حاجةٍ إلى الإيمان، والجماهير في حاجةٍ إلى الوعي»[2].

---

(١) إدوارد سعيد، صُوَر المثقّف، ص١٤.

(٢) أسوقُ هنا إهداءَ صاحب كتاب صورة المرأة في التراثِ الشيعي ـ تفكيكٌ لآليات العقل النَّصِّي: «الإهداء: إلى آية الله العظمى: العقل»!

خاتمة المقدّمة

..«ما ورثتَه عن والديك؛ حاول أن تكتسبه من جديدٍ إن أردتَ أن تمتَلكه..». جيته

لأنّ بعضَ الأشياء نسيانُها أصعب من تذكّرها؛ فإنّي لستُ أنسى ما حييتُ ما لشيخنا العلّامة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ من هذا الفَيْض الغامر من أياديه ومِنَنه.. حقّاً؛ يظلُّ أهلُ البيوتات هم أهلَ البيوتات، فالتُّفاحة لا تسقط بعيداً عن شجرتها.

أمتعَنا الله بِسؤددك في سَواد الناس، وأسعدك في نفسك ومَن تحبّ..

ثم إنّ هذه المقالاتِ نُشر أكثرُها في مجلة **الإسلام اليوم**[1]، فأشكر لأُسرتها ما لقيتُه منهم من تشجيعٍ وحَفاوة.. ولا سيما رئيس تحريرها الشيخ الرَّضِيّ فضيلة الدكتور عبدالوهاب بن ناصر الطّريري، ونائبه

(١) دخلتُ ذات صباح على شيخنا العلّامة حمد الجاسر ـ يا رحم الله تلك الشّيبة ـ فوجدتُه في مكتبته يقلّب أوراقاً بين يديه فجلستُ قُبالته، فرفع رأسه إليّ مبتسماً وقال: «التاجرُ إذا أفلس فتَّش في دفاتره القديمة».. هذه أوراقٌ فيها بعضُ ما كنت كتبتُه مما لم أنشره في حينه، وأحتاج بعض موادِّها اليوم للمجلة (**العرب**)..
ألحقتُ بهذه المقالات هنا بعضَ الإضافات، وقصّةً قصيرة، وحواراً أُجري معي عن القراءة.

أخي الأستاذ المثقّف صالح بن حمود الفوزان.

أَسأَلُ الله ـ سبحانه ـ أن يجعل سعيَنا في هذه الحياة الدنيا من خير سعي هذا النّاس، وأن يُرشدَنا إلى وضع الأمور مواضِعَها الموافقةَ للغايات المحمودة منها، والحمد لله ربّ العالمين.

عبد الله بن عبد العزيز الهدلق

الرياض: ١٤٣١/٣/٨هـ

❊ ❊ ❊

سلفيّة متجدّدة أو المجتمع المدنيّ

«وهناك آخر لا يقف إحساسه بالمسؤولية عند حدود بيته، بل يتعـدّاه إلى الفئـة التي يَنتمي إليها، أو وطنه كاملاً، هذا النوع هو الذي يتكوّن منه: وَقـود الثـورات، أو سكّان السجون، أو الباحثون عن المعرفة». أحمد بهاء الدين

إن كنتَ ممّن يمضغ الكلماتِ بفمٍ متورِّم، ويصرخ في انفعالٍ أبله: «يُستتاب فإن تاب قُتل»! فلا تقرأ هذه المقالة..

..لقد كان المنهج العلمي السائد في هذا البلد يفي ـ إلى وقتٍ قريبٍ ـ بالحاجة المعرفية والإنسانية لأهله، لما كان عليه المجتمعُ من بيئةٍ مغلقة، وفطرةٍ قريبة.

لكنَّ العلمَ الشفهيَّ، وحَلَّ المتون، والفتوى الحاضرةَ التي تدور على المواسم؛ ما عاد قادراً ـ وحده ـ على صياغة نظرةٍ شاملةٍ للإنسان والكون والحياة في زماننا الحاضر هذا.

بناءُ الإنسان لحصونه مقدَّمٌ على دكٍّ حصون الآخرين، فالتسلّح بالمعرفة يكون قبل ثقافة الردود، وكان مما أضعف الخطابَ السلفيَّ المعاصر؛ أن المشروع العلمي الكتابي للصحوة كان أكثرُه قائماً على ثقافة الردود الوقتية غير المؤصّلة وليس على البناء العلميّ، غابت تلك الردود مع شمس أحداثها، بعد أن أضرّتْ بعقول نابتة الصحوة من شيوخ اليوم.

كثيرٌ ممّن شغب على المدرسة السلفية؛ إنما استطال عليها بأدواتِ عَلِم أنها لا تحسنها كثيراً، أصبحت أقدامهم ترتاد مِساحاتٍ معرفية لا تطرقها أقدامنا، فبلغوا منّا شئنا أم أبينا.

ولا سبيل إلى ردٍّ عادية هؤلاء على أصولنا وثوابتنا؛ إلا بخطابٍ معرفيٍّ يملك من الكفاءة ما يفكّك أطروحاتهم من الداخل، إذ ليس أدعى لهزيمة الخصم ولا أنهض للحجّة من أن تساجله بخطابٍ من جنس خطابه.. وأما حَوقلة العجائز فللعجائز!

الهربُ من المشكلة لا يعالجها بل يزيدها استفحالاً، فليس كلُّ ما يقال عنا غير صحيح، وإذا ما تحدّث من لا تودّ عن فوائد التنفّس فلا تمُت مختنِقاً.

لا تكن على مبدأ أطباء موليير: «خيرٌ للمريض أن يموت على قوانين الطب من أن يشفى على خلافها»؛ لا تكن على هذا المبدأ

لئلا يطبّق عليك أول ما يطبّق.

لقد جعل درسُ المؤسسة الاجتماعية، ونزعةُ التعليل في العقل المعاصر، وحديثُ الوعي بالهوية، وتحقيقُ الذات المبدعة؛ الخطابَ السلفيَّ يخفُت صوتُه في أنفُسٍ باتت ترى أن هذا النصَّ الضيّق ما عاد قادراً على أن يستوعب آمالها المعرفية، ولا يلبي شوقَ الإنسان فيها إلى خطاب الحضارة المُربك واللذيذ.

إننا إن استمررنا في الجمود على ما نحن عليه: من ضعفِ اعتبار الواقع، والجهلِ باللغات الحضارية، وتنقّصِ قيمة البناء المعرفيّ، والغضِّ من شأن أثر الثقافة؛ مما أنتج هذا الخطاب المعرفيّ..

إن عرضْنا معتقداتِ الآخرين وأفكارَهم من أوهى مَكاسِرها: حتى إذا ما قُيّض لواحدٍ من أبناء مدرستنا أن يناقش أصحابها؛ هالتْه هذه السطحية الساذَجة التي غذونا بها عقله فعاد باللائمة علينا بما غيّبناه..

إن سلبنا حرّية الإنسان، وأهدرنا كرامته: بسطوة الإسلام السياسيّ المتوهَّمة، ودعوى القَدَر التاريخي؛ فألجأناه ببقايا آدميّته إلى قيم الليبرالية..

إن نحن رددنا آلةَ رأس المال الطاحنة، والقلقَ الاجتماعي الفاتك، وأزمةَ الاغتراب في الضمير المعاصر، والتنميطَ القسري

للعولمة، وضجيجَ العلمانية المُصمّ، وشهوةَ هوليود الآثمة: بمرقّعةٍ تشفّ عن بؤس لابسها؛ حين نفعل كلَّ أولئك؛ فإنّ طوفان المجتمع المدني غامرُنا لا محالة.

قال بولنوف: «القدرةُ على الإصغاء إلى الآخر تعني أكثرَ من التقاط الإشارات الصوتية، بل تعني أكثر من فهم ما يقوله الآخر.. إنها تعني أن أدرك أن الآخر يودُّ أن يقول لي شيئاً، شيئاً مهماً بالنسبة لي، شيئاً عليَّ أن أُفكّر فيه، وقد يرغمني ـ إذا دعت الضرورة ـ على أن أُغيّر رأيي».

إضافاتٌ لحُسن النيّة:

١ - كتبتُ هذه المقالة بقصد «النقد الذاتي الإيجابي» لمحاولة إصلاح المنهج مما يكون قد اعتَوَره من خلل (ليمكن للفكر أن يعود فيجعل الأيدي تتحرك).. وليس لتقويضِ المنهجَ القائم وإحلالِ منهجٍ آخر محلّه، فعنوان المقالة: «سلفية متجدّدة أو المجتمع المدني»، وليس: «الظلامية السلفية عدوّ المجتمع المدني».

٢ - أتحدّثُ هنا عن المنهج العلمي السائد بما هو اجتهادٌ بشريٌّ قابلٌ للنقد، أتحدّث عن آلات الخطاب وأدواته..

لا أعني بحالٍ الخطابَ الشرعيَّ المنزَّه نفسه، ولا النصَّ السلفيَّ

المبارك، حاشا.. ونعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر.

٣- لستُ أتعالى فاستثنيَ نفسي مما آخذه على غيري، فأنا لا أحسن لغةً ثانية، وأعاني ضعفاً فاضحاً في تحقيق أدنى الكمال من الاطلاع على كثير من ضروب النِّتاج المعرفيّ، لكن ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ما استطعت..

عن ابن تيميّة أَتحدّث..

«هذا القلقُ المطّرد في الوضع السياسيّ الذي اختصر حكم السلاطين ولم يسمح لهم إلا نادراً بأن يموتوا حتف أنفهم؛ استتبع حالةً من القلقِ وعدمِ الاطمئنان تهدّدت رجال البلاط والحكومة جميعاً في أرواحهم وممتلكاتهم، مما لم تُستَهدف لمثله طبقةٌ حاكمةٌ من قبل إلا في أسوأ أيام الدولة الرّومانية.

فقد عجز الموظّفون ـ حتى أقدرهم ـ عن الاحتفاظ بمناصبهم أكثر من ثلاث سنواتٍ إلا في القليل النادر، وكم من قاضٍ أُسند إليه القضاء ثم عزل عنه عشر مرّات متواليات أو يزيد، ليس هذا فقط؛ بل لقد كان ثمة نفوذ فقهاء السنّة ورادعهم المعنوي، أولئك الفقهاء الذين لم يتورّعوا عن اضطهاد رجلٍ صالحٍ مؤمنٍ بالله أَصدق الإيمان وأَشدّه كابن تيمية الحنبليّ، لإحجامِه عن مجاراتهم في جميع ما ذهبوا إليه من رأي، ولمقاومتِه كثيراً من مظاهر التديّن لدى العامّة كعبادة الرّسل والأولياء.. ولئن كان معاصروه قد حاولوا قمعَ تعاليمه بالقوّة؛ فقد كُتب لها برغم

ذلك أن تبقى حيّةً في دوائر أتباعه المحدودة، لتستمدَّ منها الحركةُ الوهابيّةُ حافزَها بعد أربعمئةٍ من السنين، ولتفيدَ منها حركةُ التجدّد الإسلامية في الجيل الحاضر».
كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ص ٣٦٩.

إنه ليمرُّ بي اسمُ العالِمِ والعالِمِ فلا أكاد آبَه.. ثم يمرُّ ذكرُ ابنِ تيميّة فيأخذني شيءٌ لا أتبيّن مأتاه، رحم الله أبا العبّاس، فالكتابةُ عنه ضَرْبٌ شديدٌ من الوَعْي والمسؤولية؛ لأنه يحتاج إلى مقياسٍ خاص..

هنا إحدى عشرة فقرةً هي حصيلة تأمّلٍ في شخصيّةِ هذا الإمام وتراثِه الضّخم، حاولتُ أن آتيَ فيها بجديد.. ونحن ما أحوجَنا بين الفينة والأخرى إلى أن نقلّب النظر كثيراً في منازع هذه العبقرية الفذّة، وإلى أن نُعمل الفكر طويلاً في اجتلاء هذا الإرث الذي امتنَّ الله به على عباده في هذه الأعصُر المتأخِّرة..

* * *

١ـ كثيرٌ من تراثِ شيخ الإسلام ابن تيميّة لا يُبتدأ به؛ وإنما يُنتهى إليه... فالعلوم يأخذ بعضُها بحُجَز بعض، فهي كدرجات السلّم كلّ واحدة تُسلم إلى أختها، ولعلّ مما أضرّ ببعض طلبة

العلم؛ أن أحدهم يعلَق بسمعه أوَّلَ ما يسلك طريقَ العلم اسمُ هذا العَلَم الكبير، وما لتراثِه من الأهمية البالغة، فيغوص في عمقه وهو لـمّا يتعلم السباحة على شاطئه بعد، فيؤذيه ذلك كثيراً..

٢ـ ليستْ هناك شخصيةٌ حيّةٌ حاضرةٌ في بناءِ عقل ابن تيمية ولا في تشكّل وجدانه، فلا تراه يقول: وكان شيخنا، ودخلت مرّة على فلان.. مما تراه فيما يذكره عنه ابن القيّم مثلاً، أو فيما يذكره كثيرٌ من الأعلام عن مشيختهم والآخذين عنهم.. لا أدري؛ لعلَّ الله سبحانه لما أن أعدّ هذا الإمام لما هو بسبيله من هذا التجديد؛ وعصرُه على ما هو عليه من السوء؛ هيّأَ له ألّا يتطامن عقلُه ولا وجدانُه لسلطان أحد من مشيخته المعاصرين، فجاء منه هذا العقلُ الحرُّ النـزّاع إلى الحق، الرافضُ للتقليد الأعمى، وهذا الوجدان الصافي الذي اغتسل بماء الوحي النقيّ، فلم تكدّره تلك الأوضار التي كانت عالقةً بكثير من أنفس أهل عصره.

٣ـ تمنّيتُ لو أن سيد قطب وعبد الوهاب المسيري ـ رحمهما الله ـ قد عرفا تراثَ ابن تيمية وأفادا منه، لا أكاد أجد له ذكراً ولا أثراً فيما كتباه.. لو كانا توافرا على تراثه؛ لرأيتَ نقلة رائعة في كتابات هذين الكبيرين، ولقرأتَ إضافة ثرية في فهم بعض نصوصه، وقراءةِ جوانب من شخصيّته.

٤ـ رأيتُ ابنَ تيميّة في مداخل ردوده على أهل الفرق المخالفة، وأربابِ الأهواء المُضلّة؛ يبالغ كثيراً في عرض معارفه، وما يحسنُه من علوم هؤلاء.. أظنُّ أنه ـ رحمه الله ـ كان يمارس نوعاً من الإذلال المعرفيِّ لخصوم الوحي، كأنّه يقول لهم: هذا الذي تتحدّثون عنه وتأخذون في شأنه؛ لم نطّرحه جهلاً به، فنحن أعرف به منكم، لكنّنا آثرنا الوحي عليه.

٥ـ ركّزتْ السلفيّةُ المعاصرةُ على درس جوانب من شخصية ابنِ تيمية وتراثِهِ، وأهملتْ جوانب أخرى ـ كالجانب الفكريّ والسياسيّ والسلوك الاجتماعيّ ـ لا تَقِلّ أهميّة.. ولأن كثيراً من خصوم ابن تيمية إنما عرفه عن طريق الصورة التي رسمتْها السلفية المعاصرة له؛ فإنّ ذلك ضيّق زاوية النظر لدى هؤلاء المثقّفين والمفكرين من الخصوم، فلم يتبيّنوا هذا الاتساع الهائل الذي تمتلكه هذه الشخصية الكبيرة في ذاتها وتراثها.

٦ـ لابن تيميّة سلطانٌ بالغُ الأثر على عقل قارئه، لما له من هذا الأسلوبِ السيّال، والتدفّقِ المعرفيّ المُبهر، والحجّةِ العقلية النافذة، والحماسِ المتّقد لما يؤمن به.. لذا فإن قارئه يفقد مع الأيام محاكمةَ نصِّه، ويُستلب له.. على طالب العلم أن يحاذر وهو يتخرّج بتراث هذا الإمام؛ عليه أن يحاذر من أن يفقد شخصيّتَه واستقلالَه، فيفقد

ما به أصبح ابنُ تيميّة ابنَ تيميّة.

٧ـ كان ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ من كبار مثقّفي عصره.. كثيرٌ من هذا الذي تقرأه في تراثه إنما هو ثقافةُ عصره الدائرة، ومعارفُه الحاضرة، ولهذا ـ وهو من المفارقات ـ ترى أن كثيراً من طلبة العلم ممن لهم بَصَرٌ وعنايةٌ بتراث شيخ الإسلام ابن تيميّة؛ يعرفون من الواقع الثقافيّ والفكريّ لعصر ابن تيميّة أكثر مما يعرفون من واقعهم الثقافيّ والفكريّ!

٨ ـ أحسب أن كلّ هذا الاصطراع والاحتراب الكائن في زماننا اليوم؛ إنما يعود عند تأمّله إلى تراث وجهود خمس شخصيات مؤثرة رئيسة:

١ ـ ابن تيميّة.

٢ـ مارتن لوثر.

٣ـ كارل ماركس.

٤ـ ثيودور هرتزل.

٥ـ الخميني. (تنبّهتُ إلى أن بين هرتزل والخميني شبهاً غريباً، هناك مشروعٌ أثمر عن دولة، ذاك بِنبذ فكرة المُخَلِّص، وهذا بِولاية الفقيه.. هل كان الخميني يترسّم مشروع هرتزل؟ وهل ما قيل عن مشابهةٍ بين الرافضة واليهود؛ يحقّقه هذا الاقتداء؟).

بَسْطُ هذا الموضوع كلّه له من الخَطر ما يحتاج معه إلى إفراده في مقالةٍ مستقلّة، عسى الله أن ييسّر ذلك.

٩ـ من أعظم المقاييس عندي للعمل الخالد: **هو أنّه العمل الذي لا تستطيع أن تتجاوزه مهما تركتَهُ وعدتَ إليه**.. ثمّة تراثٌ يكون له أثرٌ في نفس قارئه في مرحلةٍ من مراحل عمره، لكنّه حين يعود إليه بعد أن يقطع شوطاً من العلم يشعر بأنه قد تجاوزه (هذا المنفلوطيُّ يحبّه المتأدّب ويكرهه الأديب كما قيل) لكنْ هناك أعمالٌ لا تستطيع أن تتجاوزها مهما اكتسبتَ من المعرفة وعدتَ إليها، وعندنا في التراث أمثلةٌ لهذا: **المغني** لابن قدامة، **مقدمة ابن خَلدون**، **فتح الباري**.. أظنّ أن تراثَ ابنِ تيميّة كلّه ـ وليس عنواناً أو عنوانين ـ يصدق عليه هذا المعنى كما لا يصدق على تراث عالمٍ من علماء الإسلام، لا تستطيع أن تتجاوز تراثَ هذا العالِم مهما اكتسبتَ من المعرفة وعدتَ إليه.

١٠ـ لا يمكن أن يُفهم نصُّ ابن تيميّة بمعزلٍ عن روح عصره، وما احتفَّ به من أحداث، لابدّ من قراءة الخلفية التاريخية لهذا النصّ، والسياقِ المعرفيِّ الذي تكوّن فيه، لن يَفهمَ هذا التراث الهائل من لا يملك قراءةً جيدةً عن عصر المماليك، وما كان في تلك المرحلة من اشتجارٍ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ وسياسيٍّ كان له أثرٌ كبيرٌ

في تشكّل النصّ التيميّ..

١١ـ في مقدّمات كتب شيخ الإسلام ابن تيميّة المحقّقة، وفي كثير مما كُتب عنه؛ أجدُ أن الأقلام تعيد كلماتٍ بأعيانها قد قيلت فيه، حتى إني سئمتُها لكثرة ما قرأتُها عشرات المرات بل مئاتها: «لم أر مثله ولم ير مثل نفسه»..

هناك بعضُ الكلمات الرائعة عن هذا الإمام لا تكاد تذكر: لِلْواني والمقريزي وشاه ولي الله الدّهلوي وغولدتسيهر ومحمد كرد علي ونقولا زيادة.. ولعل ما صدّرتُ به من كلمة بروكلمان من هذا القبيل، فهي لا تكاد تذكر مع أنها ذاتُ شأنٍ من مثل هذا المستشرق، ليت أننا نتجاوز هذا الاجترارَ ونتوسّع في قراءاتنا، حتى نقف على مظانَّ عاليةٍ غير مكرورة فيما نكتبه.

«إنّي منذ عهد غير قريب وجدتُ من وقتي فراغاً يتّسع لدراسةٍ دقيقةٍ لكتابي شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم الحرّاني الدّمشقي الحنبليّ المعروف بابن تيميّة، المتوفى في عام (٧٢٨) من الهجرة، وهما كتاب **منهاج السنّة المحمّدية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، وكتاب **موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول**، فأخذتُ نفسي بأن أقرأ كلّ يوم عدة أوراق من أحد الكتابين، وأن أقفَ عند نهاية كلِّ مبحث وَقفة فاحصٍ متدبرٍّ يحبُّ أن يفيد مما يقرأ، وكنتُ

أجد في كلّ يوم من غزارةِ علم الشيخ، وسعةِ اطلاعه على ما أَلَّفَ الناس وما قالوه، وما نُسب إليهم، ومديدِ باعه في الحوار والجدل، ورجاحةِ عقله التي تنخُل الآراء والأقاويل، وتبهرج زائفها، وقوّةِ عارضته في إقامة الحجة؛ ما لا يُقضى منه العَجَب..». العلّامة محمد محيي الدّين عبد الحميد

رحِم الله شيخَ الإسلام ابنَ تيميّة ورضيَ عنه، ولقد أراه بلغ في آخر أيّامه في سجن القلعة من الولاية؛ ما لم ينل منه بعضُ الأكابر إلا الفُتات ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

❊ ❊ ❊

بئسَ هذا النّـاس

«إنهم يَعرفون أنهم أكثر مما ينبغي، وأنه لابدّ أن يفـترس بعـضُهم بعـضاً شـأن العناكب في وعاءٍ واحد». بلزاك

هذه النّفس الإنسانية غريبـة النّـوازع والبَـدَوات والأطـوار.. ومن مفارقاتها أن قلمي لا يكون في أحسن حالاتـه إلا إذا سـاءت نفسي..

واليوم أصبحتُ ضيّقَ الصَّدْر فانشرح قلمي، ولا أدري ـ وقـد جاوزتُ طَوْر تكلّفِ الشجى لاستدرار الموهبة ـ مـا بـال قلمـي لا يضيء إلا بنار روحي وَوَقْد ضميري؟

ألا بئس هذا الناس..

ولولا دِينٌ وحياءٌ لقلـتُ بقلمـي هكـذا فكـشفتُ عـن وجـوهٍ تُصدَّر في المجالس؛ فلما عاملتُها خشيتُ منها على نعلي!

قال سفيان الثوري لعطاء الخفاف: «يـا عطـاء: احـذر النّـاس، وأنا فاحذرني».

غَبَرَ عليّ زمان كنتُ أقول فيه لمن أنصحهم: ربُّوا أبنـاءكم عـلى الخير والطُّهر، واليوم صرتُ أُردّد مع القائل: «ستُقنع الغـنم بالمـذهب النباتيّ، لكن الذئاب لها رأي آخر».

ألا فلتربّوا أبناءكم على كثيرٍ من الشرّ، لا ليكونوا أشراراً؛ لكـن حتى يتّقوا من الناس شرَّ الناس.

كنتُ أقول لمن أنصحه: أحسنْ إلى الناس قدر ما تستطيع، وأما اليوم فنصيحتي له: أنْ قلّـل مـن إحسانك إلى النـاس، فـإذا أنـت أحسنتَ إلى الواحد منهم فـلا تـشعره بـذلك؛ لأنـه سـيجعل مـن إحسانك إليه ذريعةً للإساءة إليك. «قال رجلٌ لآخر: فـلانٌ يـسيء القول فيك، فقال له: عجيب، مع أني لم أحسن إليه».

كنتُ أقول لمن أمحضهم النصح: أحبّوا الناس، واليـوم فلـستُ أقول لهم: اكرهوا الناس بإطلاق، لكنـي أقـول: أحبّـوا الإنـسانية مجتمعةً، واكرهوهم أفراداً!

في **قصة الحضارة** لديورانت: «وأحزن البابـا ـ أدريـان الـسادس ـ وأقضّ مضجعه عجزُ الإنسان عن أن يـصلح النّـاس، وكثـيراً مـا جهر بقوله: «ما أكثر ما تعتمد مقدرةُ الإنسان وكفايتُه عـلى العـصر

الذي يقوم فيه بأعماله».

وفي **تساعيّة نقدية** لماهر فريد: «كتب رسكن ذات مرّةٍ ما معناه: «في طريقي إلى المُتحف البريطاني كلّ صباح؛ أجد وجوه الناس في الشارع تزداد فساداً يوماً بعد يوم».

***

يوم أن انتابتني تلك الجائحة الرُّوحية المظلمة قبل إحدى وعشرين سنة، وانثالت عَليَّ المصائبُ ـ أجارك الله ـ ترفُّ تترى متتابعات حتى ذُهل قلبي المسكين فما عاد يدري لأيهنّ يتألم..

ويوم أن تنكّر لي من كنتُ أحسنتُ إليه من رُذال هذا الخلق وسَقَط ولد آدم (كتب أحدهم: كان من قَدَري أنّ أغلب من ألقاهم في دروب حياتي المُعتمة هم من ذوي العاهات المُخيفة) حبستُ نفسي في البيت عدّة سنوات، وذهبتُ ـ فيما يشبه الجنون لكنّه معرفيّ ـ أقرأ في اليوم والليلة أكثرَ من ثلاثَ عَشْرة ساعة، لا يصرفني عن القراءة إلا دموع عينيّ من فرط الجهد، لم أكن في تلك الأيام أتنفّس من رئتيّ، كنتُ ألتقط أنفاسي من ثقوب الكلمات.. ولولا أن مَنَّ الله عليَّ بالهداية لربما تيبّستُ شيئاً فشيئاً

حتى صرتُ ـ كما قال كافكا ـ: «حَجَراً لقبر نفسي»..

لا، لم أكن في تلك الأيام أُسحق؛ لكنّي كنتُ أتشكّل..

استهواني ـ فيما استهواني ـ من هذه الدنيا الغريبة التي فتحها الله عليّ بعد أن أُوصدتْ دنيا الواقع في وجهي: فنُّ التراجم الذاتية..

وما زلت أظن أنه لا يوجد فنٌّ آخر يعدِله من فنون هذا التراث الإنسانيّ كلّه.

نفضتُ المكتباتِ العامة والتجارية نفضاً، لم أترك فيها ترجمة ذاتية ذات شأن إلا طالعتُها، وكنت أُعيد قراءة بعض التراجم أكثر من مرّة، كالجزء الأول من **أيام** طه حسين طالعتُه عدة مرات، وكان أملاه في أيام يسيرة.

وربّما طالعتُ السيرة الذاتية في أكثر من ترجمة، **كاعترافات** جان جاك روسّو، طالعتها في ترجمة بدر الدين، وترجمة خليل رامز، في كثيرٍ كثير..

كانت كتب التراجم الذاتية مسلاةً لروحي، أجدُ فيها العظة والعبرة والمتعة، وكنت أعثر فيها على لطائفَ من المعارف لا توجد في غيرها، بل لا يظن القارئ أنها من مظانٍّ هذه اللطائف:

١ – في سيرة الممثل الهزلي المشهور شارلي شابلن **قصة حياتي** حديثٌ أفضت به زوجة آينشتاين لشارلي عن الأيام التي كتب فيها

زوجُها «النظرية النسبية».. ستحفى قدما محاضر في العلوم وهو يتردَّد بين أرفف المكتبات فلا يظفر بمثله.

٢- في سيرة المخرج الإسباني العالمي بونويل **أنفاسي الأخيرة** أخبارٌ عن الشاعر الإسباني لوركا ـ إذ كان صديقَه ـ لعلها لا توجد فيما أُفرد عنه من دراسات، وفيها قصةٌ عن هذا الماكر شابلن تكشف عما كان أخفاه في سيرته من إباحيّته ودَنَسه.

٣- في ترجمة أنيس صايغ لنفسه **أنيس صايغ عن أنيس صايغ** فصلٌ حافلٌ عن ياسر عرفات يفرح به مؤرخو السياسة.

٤- في **حياة طبيب** لطبيب النساء القبطي المشهور في وقته نجيب محفوظ ـ هو الذي سُمّي به الروائي نجيب محفوظ لأنه قام على ولادته حين تعسَّرت ـ قصة طريفة عن اللغوي الكبير حمزة فتح الله، لم يقف عليها باحثان كتب كلٌّ منهما بحثاً جيداً عنه.

٥- في **مذكرات أغا خان** أن السلطان عبد الحميد كان يضع الماكياج لما قابله!

٦- في **مذكرات جريح** لبولس سلامة أنه طريح الفراش منذ عشرين عاماً أجرى خلاها أربعاً وعشرين عملية..

٧- في **النوافذ المفتوحة** للشيوعي شريف حتاتة ـ زوجِ سيئة الذكر نوال السّعداوي ـ ما يكشف عن شخصية الشاذّ في رواية

عمارة يعقوبيان لعلاء الأسواني.

٨- في **سيرة عبدالرحمن بدوي** ذكرٌ لدراسته بعضَ تراث شيخ الإسلام ابن تيمية على شيخه مصطفى عبدالرازق.

٩- في **المذكّرات** للعلامة محمد كرد علي أخبارٌ عن الشيخ طاهر الجزائري لا توجد في كتاب.

١٠- في **رحلة جبليّة** لفدوى طوقان ما يدل على أثر هذه السيرة على ما كتبتْه متأدّبة قليلة الموهبة في روايتها **الوارفة**.

١١- في سيرة برتراند راسل نعرف أن أخاه هنري كان مُسلماً..

١٢- في **أوراق العمر** للويس عوض ـ هذا الكتاب من أعمق كتب التراجم الذاتية على ما فيه من سوء ـ يتكشّف لنا كذب جيهان السادات بشأن كتابتها لأطروحتها في مقابلتها مع أحمد منصور!

١٣- في **مذكرات طبيب عبدالناصر** الصاوي حبيب ـ وهو طبيب جمال عبدالناصر في آخر سنوات حياته ـ نتبيّن بعض صدق «هيكل»، وأنه كان أثيراً عند عبدالناصر.

١٤- في **الاعتبار** لأسامة بن منقذ ـ هذه أفضل ترجمة ذاتية في تراثنا العربي ـ نصوصٌ رائعةٌ عن أوروبا العصور الوسطى.

١٥- في **الجمر والرّماد** لهشام شرابي تصويرٌ نادر لشخصية

أنطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري الذي أعدمتْه الحكومة اللبنانية.. وفيها يقف القارئ على المورد الذي استقى منه عبدالرحمن بدوي أغلب رسالته عن **الزمان الوجودي**.

١٦ - في **شظايا من عمري** لعبد المعين الملّوحي أنه هو الذي أشار على سامي الدروبي بترجمة الأعمال الكاملة لدوستويفسكي.

١٧ - في مذكرات محمد الرايس **من الصخيرات إلى تازمامارت** تجربة سجنه في زنزانة انفرادية أكثر من ثمانية عشر عاماً.

١٨ - في **خواطر وذكريات** لإبراهيم الحسُّون وصْفٌ بديعٌ للحياة اليومية في جُدّة في بداية الدولة السعودية.

١٩ - في **التحدّث بنعمة الله** للسيوطي ـ هذه ترجمته المفردة، وقد كتب بعض الباحثين رسالة دكتوراه عن السيوطي، فكان ينقل عن ترجمة السيوطي لنفسه في **البُغية** و**حُسن المُحاضرة**، ولم يعرف أن له ترجمةً مفردة ـ نجده يقول ما معناه: «إنه ما من أحدٍ من تلامذة والدي إلا أساء إليّ فيما بعد إلا فلانٌ وفلان».

لذا بدأتُ بتأليف كتاب عنوانه **المنتخب من كتب التراجم الذاتية** لو تمَّ لأتيتُ فيه بما يبهر القارئ ويفيده..

لكن صَرَفني عن هذا الكتاب ـ وأمثالِه ـ قناعاتٌ ربّانيةٌ خرجتُ بها ـ بتوفيقٍ من الله عز وجل ـ من بعض دروس الحياة،

ومن كتب التراجم الذاتيـة نفـسها؛ فقـد وجـدتُ أن كـلَّ تجـارب الإنسان في حياته قابلةٌ للنجاح والفشل، لا يؤول شيءٌ من تجـارب حياته إلى غير هذين..وأما معاملة الربِّ ـ جلّ وعلا ـ فإنها لا تقبل إلا النجاح ببرهانٍ وثيق.. ولعلي أعود لأبسط تحوّل القناعات هـذا في مقالٍ آخر.

مـا إن اسـتمررتُ في القـراءة في هـذا الفـن، ومطالعـة هـذه التراجم؛ حتى وجدتُني أمام حقيقتين تطلّان عليَّ فلا تخطئهما العين في كلِّ ترجمة ذاتية أقرأها:

١- رأيتُ أن الذين قرأتُ تراجمهم الذاتية يُجمعون كلهـم عـلى اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأزمانهم وأعمارهـم وأديـانهم، وتفاضـلِ تجاربهم، وتباينِ مشاربِ أنفسهم، وتنوُّعِ مطارح مقـاديرهم: عـلى أن الحياة نَصَبٌ ومشقّة، وأنهم ما نـالوا مـا نـالوه منهـا إلا بالـصبر والتجلُّد والمغالبة.

٢- ثم رأيتُهم ـ هذا هو بيتُ القصيد من حـديث الـتراجم هـذا ـ يُجمعون وفيهم: العالم والأديب، والمخرج والفيلسوف، والـسياسي والقائد، والممثل والأستاذ، والرّسام والمهندس، والتاجر والمريض، والسجين والفقير، ومن شئت وما شئت.. رأيتُهم يجمعـون كلهـم على فسادِ طبيعة الإنسان، وسـوءِ خُلُقـه، وبـشاعةِ مخـبره، وخُبْـثِ

طَوِيَّته، ورداءةِ صِنْفه.. وأنه لم ينلهم من أوصاب هذه الفانية، وأدواءِ هذا العمر، وأتراح هذي الروح؛ أشدّ ولا أشقّ ولا أكثر إيلاماً من صراع الإنسان وحَسَده وقُبْحِه..

فَمِن كاذبٍ لا يصدق إلا في أنه كاذب، وخائنٍ لمن ائتمنه، ومتنكّرٍ لصديقٍ أحوج ما يكون إليه، وظالمٍ يطلب مالا حقَّ له فيه، وجاهلٍ خابي الذّهن فاترِ الموهبة يَنقم على هذا وذاك أن منّ الله عليهما بما حرمه منه..

إلى ذي روحٍ خبيثة يأبى صاحبُها أن تُنزع منه قبل أن يسيء إلى من أحسن إليه، وذي أَثَرَةٍ مفرطةٍ يتمنى معها أن لو صُرم نصف أهل الدنيا ولا تفوته نومة العصر..

في أمثلةٍ بغيضة، ونماذجَ كريهة، ونسخٍ مكرورةٍ مشوَّهة، يخجل المعافى أن يجتمع معها في مسمى واحد، حتى قال بعض المؤلفين ـ شبه معتذر ـ في مقدّمة كتابٍ له: «لعلي لا أجانب الصّواب، ولا أبتعد عن جوهر الحقيقة إن قلت: إنني كائنٌ بشريّ»!

وهكذا.. فبعد أن طالعتُ من كتب التراجم الذاتية ما يملأ قُبّة الصخرة؛ وجدتُني أفتح الباب وأدخل إلى الشارع! كما عبّر كاتبٌ غربيٌّ نسيت اسمه.

هكذا وجدتُني أعود أدراجي كرّةً أخرى، فإذا الإنسانُ ذئبُ

الإنسان يَفْري أخاه فَرْياً شديداً، وإذا الحياةُ هي الحياة: تَلِـد بنيهـا، ثم تعود فَتَخْتِل لهم، وتفعل بهم ما تفعله القطّـة الغـادرة بـصغارها العُمْي العاجزين..

فبئسَ الناس وبئسَ الحياة..

سـئمتُ كـلَّ قـديمٍ عرفتُـه في حيـاتي
إن كـان عنـدك شيءٌ مـن الجديـدِ فهـاتِ

* * *

● **عن الأعداء**.. حين طلب القسّيس إلى القائد والطّاغيـة الإسـباني نارفاييز ـ وهو على فراش الموت ـ أن يصفح عن أعدائه؛ أجابه نارفاييز: «أيّها الأبُ الرّفيع المقام، أنا ليس لي من أعداء؛ فقد قتلتُهم جميعاً..».

* * *

فوائدُ من مجالس شيخنا العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد

تالله تفتأُ تذكرُ الشيخَ بَكراً..

نعم، ومالي لا أذكره، و﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من فَقده..

أُمَّةٌ يموت فيها العالِمِ ثم لا يَخلُفه فيها غيره؛ ليست تسير على سواءٍ من أمرها..

وإن كان عزاءٌ؛ فإنما هو في أن هذا الموت يحيا به أقوام، وليس أحدٌ أحق بأن يكون له من معنى موته حياةٌ دونها الحياة؛ كعالمٍ ربّاني..

لن أُترجم للشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد ـ رحمه الله ـ في هذا المَدخل فما كتبتُ لهذا، لكني سأتحسّس بقلمي «شيئاً يسيراً» من مكامن شخصيته.. على أني أُحاذر من أمرين لا يكاد يسلم منهما

من يكتب عمن يعرف من الأعلام:

١ - أُحاذر ـ ما استطعتُ ـ أن أجعل كتابتي عن الشيخ ذريعةً للحديث عن نفسي.

٢ - ثُمَّ أُحاذر ـ ثانيةً ـ أن أصف الشّيخ بسبعة عشر وصفاً تصلح كلّها لكلِّ عالمٍ، ثُمَّ لا ترى فيها واحدًا منهم.

إنّ سيرة بعض العلماء مُخجلة!

أَلْقِ ديناراً في غَيابة تاريخٍ من تواريخنا؛ ثم ابتعدْ وانظرْ كم عمامةٍ تسقط عليه؟

حين تتبين هذا تعرف قدر الشّيخ يوم قال لي مرّةً: حضر عندي قبل أيام أحد كبار النّاشرين... ثم ذكر الشيخ كلاماً قال في آخره: يريدون أن يجعلوا منّي مطيةً لدنياهم، هيهات...

كان الشيخُ في عينيه قَدْحٌ من ذكاء الفطرة، يُخيّل إليّ معه أن لو نشأ نشأة مدنيّة لعُدَّ في دهاة أهل السّياسة.

الغَيْرة حِلْيةٌ جُبل الشيخ عليها، ومن لا غيرة عنده لا فضيلة فيه، هو غيورٌ على دين الله أن يجترأ عليه، غيورٌ على عقيدة السّلف أن تمسّ، غيورٌ على محارم المسلمين أن يُنال منها، غيورٌ على هذا العلم أن يتسوّره مَن ليس من أهله.

كان مُهاباً لا يجسر مُحدّثه على أن يحدّق إليه، فإذا أَنِس بمحدّثه

تَبسَّط له، فربما رأيتَه تهزُّه النادرة فيضحك لها حتى يكاد يخرج عن وقاره.

تملَّكه معنى عِزّة العالِم وصيانة العلم، وإنك لتستطيع ـ غير غالطٍ ـ أن تردَّ أكثر ما كان فيه الشيخ من نأي عن مخالطة النّاس، وبُعْدٍ عن غشيان محافل العامة إلى شيءٍ من هذا.. بل ربما أسرف فيه ـ رحمه الله ـ فخرج به إلى بعض ما تنكره نفسُ من لقيه أوّل مرة.. وما به إلا هذا المعنى: «رأى بعض أهل العلم أذال عِلمَه؛ فمَقت نفسه أن يراها في صورته».

لا أذكر أن أحداً ممن عرفتُ من أهل العلم؛ تشدّه الفاردة اللطيفة، وتستهويه الشاردة الفاذّة؛ ما رأيتُ منه، نعم.. ومن شيخنا العلّامة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ أمدَّ الله في عمره على الخير.

ذكرتُ للشيخ بَكْر مرّةً أن كرد علي قال في **مذكراته**: «ابن تيمية للإسلام كمارتن لوثر للنصرانية»؛ فدُهِش.. واستعاد الكلمة منّي، ثم أَخَذ وجهُه يتهلّل في جَلالٍ من أَلَقٍ آخِذٍ لم أره في وجهِ فاترِ الذّهن قط.

قال ابنُ حزم: «لذّةُ العالِمِ بعلمِه».

جمعتْني بالشيخِ عدة مجالس في بيته، ودارت بيننا أحاديثُ كثيرةٌ عن العلم وأهله.. لم أكن من خاصَّةِ تلاميذه، ولا من خُلَّص

أصفيائه، وإنما كنتُ ـ ولا أزال ـ طويلبَ علم صغيراً أَنِس به الشيخ لشيءٍ رآه فيه، ثم إنّ هذا الطُّويلب عاد فأخلف ظنَّ الأستاذ.. فيالله ماذا الأيام وما الذي تصنعه مآلاتُ الأمور بنا؟

كنتُ ألقاه في الشَّهرين والثَّلاثة مرة أو نحوها مدة أربع سنوات، فلما مرض ـ رحمه الله ـ انقطعت أسبابي عن أسبابه فما رأيتُه قبل وفاته بثماني سنين.

وهذا الذي أذكره هُنا «شيءٌ» من فوائد تلك المجالس، ما كنت علَّقتُ منه حرفاً في حياة الشيخ..

لكن كتبتُه في هذه الأيام ضنّاً به على الأيام أن تطويه.. ولأن العقاد كان يقول: «الذاكرة مَلَكة مستبدّة، تحفظ وتنسى على غير قانونٍ ثابت»؛ فما في هذه الفوائد مما يلوح أنه على غير وجهه فالشيخ بريء منه، وإنما تَبِعَتُه على هذه الملكة المستبدّة، وإن شئت فقل: أوْ على صاحبها.

ثم إني سقتُ هذه الفوائد هكذا عفوَ الخاطر كيف اتفق، فلم أرتبها على بابات العلم بابةً بابةً... ليكون أروح لنفس قارئها، ولم أُعلِّق على ما ورد فيها إلا يسيراً، حتى تكون أدخل في فطرة العلم منها في صنعته، إذ كانت تلك المجالس مع الشيخ على هذا المثال:

١ـ قال لي الشيخ ـ رحمه الله ـ: ما ندمتُ على شيءٍ في شبابي

ندمي على كتابين فرّطتُ فيهما:

أ) كتاب **الزُّهد** للإمام أحمد رحمه الله.. كنتُ في مكة فمررتُ في طريقي على كُتبي فإذا به قد عرض نسخاً من كتاب **الزُّهد** هذا طبع الهند، وكان إذ ذاك نادراً.. فسألته عن ثمنه فكأن الثمن كان مرتفعاً فتركته، فقال لي الكتبي: خذ نسخة منه ولا تتركه فهو نادر وستندم على تركه فإنما وجدناه في أحد المستودعات، **قال الشيخ**: فلم آخذ نسخة منه..

وذهبتُ بعد كلامه هذا مباشرة لزيارة سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز ـ وقد كان يعرف محبتي للكُتُب ويسألني عما رأيته منها في المكتبات ـ فأخبرته عن كتاب **الزُّهد** فقال: وما اشتريتَ منه شيئاً؟

فقلتُ: لا، فقال: سبحان الله، كتاب **الزُّهد** للإمام أَحمد تركتَه وما اشتريت منه شيئاً، هذا عجيب، **قال الشيخ**: فأحسستُ عندها بتفريطي، فقال لي سماحةُ الشيخ: اذهب الآن إلى الكتبي واشترِ منه الكمية كلها، **قال**: فنزلت مسرعاً، فلما وافيتُ الكتبي لم أر عنده نسخة واحدة، فسألته: أين كتاب **الزهد**؟ فقال: بعتُه كله ولم يبق منه شيء، وعاتبني قائلاً: ألم أقل لك خذ نسخة منه فهو نادر.

قال الشيخ: لم يكن بين تركي له في المرّة الأولى وعودتي إليه إلا زمن يسير باع فيه الكتاب كلّه، وندمت على فوات هذا الكتاب

ندماً شديداً، ثم إن الكتاب طبع بعد ذلك وكثرت نسخه بأيدي طلبة العلم.

ب) **قال الشيخ**: وأما الكتاب الثاني: فكتاب **غرائب الاغتراب** رحلة الألوسيّ المفسِّر.. رأيتُه في شبابي عند بعض الكتبيين أخرجه من خزانة خاصة في المتجر، وقلّبتُه فسألته عن ثمنه فإذا به قد بالغ فيه جداً، قال الكتبي: خذه فهو نادر ولعلك لا تجده بعد هذه المرّة، فطلبت منه خفض ثمنه بعض الشيء فلم يوافق فتركته.. ثم إني لم أجده بعدها ولم أره في يومٍ من أيام حياتي على كثرة ما رأيتُ من الكتب..

قال الشيخ: حتى إني حين قلَّبتُ الكتاب عند الكتبي عَلِقت في ذهني مسألةٌ من مسائله، فذكرتُها في أحد كتبي وأحلتُ إلى الكتاب دون ذكر الصفحة هكذا من الذاكرة.

قلتُ: رأيتُ في مرض الشيخ ـ رحمه الله ـ نسخةً من هذا الكتاب، هي نسخة جمال الدِّين القاسميّ، وعليها تعليقٌ بخطه في نصف صفحة فيه: أن الشيخ زكريا الأنصاريَّ كان إذا مرِض استشفى بمطالعة كُتُب أهلِ العِلم!

٢- **قال الشيخ**: لا أُحبُّ الإطالة في النزهة، وليس من عادتي الخروج إلى الصحراء وقت الربيع إلا في القليل.. وإذا خرجت

فلتناول الغداء ونحوه، ثم أعود.

٣- قلت للشيخ: سمعتُ من عالم الجزيرة الشيخ حمد الجاسر أن بعض علماء شقراء رأى تلميذاً له قد أقبل وعليه خاتم، فقال يمازحه:

ألا قُل لبعضِ النّاس مثلِ مُحمَّدٍ   متى كان دينُ الله لُبْسَ الخواتِمِ

ثم إن الشيخ ابن سَحْمان بَلَغه هذا البيتُ فردَّ عليه بقصيدةٍ يسفّه فيها قائله ويذكر أن لبس الخاتم سُنّة..

قلتُ للشيخ: قرأتُ أن سماحة الشيخ ابن باز يرى أن لبس الخاتم ليس بسُنّة، **فقال**: نعم، ليس لبسه سُنّة.

٤- **قال الشيخ**: أكثرتُ في الآونة الأخيرة من كتابة المقدِّمات لطلبة العلم، أكثرتُ وليس للعالم أن يبتذل قلمه هكذا، لا بُدَّ للعالم من أن يصون قلمه، لابُدَّ للعالم من أن يصون قلمه..

فقلت له: إن العقّاد قلما قدَّم كتاباً، لكنه إن قَدَّم كتاباً فإنه لا يذكر صاحب الكتاب بكلمةٍ في الغالب، وإنما يتكلم على موضوع الكتاب ويطيل ويستدرك، لذا ربما كانت مقدمته أعلى قيمة من الكتاب فأضرّت بمؤلفه، فابتسم الشيخ **وقال**: والله جيد.

٥- **قال الشيخ**: يؤلمني ويعصر قلبي حين أرى بعض كتابنا ـ وأشد ما يؤذيني حين أسمع خطيباً على المنبر ـ يُكثر من الاستشهاد

بأقوال الغربيين في مدح الرسولِ ﷺ أو الثناء على الإسلام، بَلغْنا من الهوان أن احتاج دين الله إلى أقوال هؤلاء نثني بها عليه.. نعم، تُذكر مثل هذه الأقوال لكن في أضيق الحدود.

٦- **قال الشيخ**: زرتُ مع بعض الرّفاق ـ أظنه قال وقت الشباب ـ أحد علماء الشّناقطة في المدينة، فلما دخلنا عليه وجدناه مضطجعاً وقد جعل وجهه تجاه الجدار، وكنا نسأله ويجيبنا وهو على هذه الحالة!

قال: فلما طال بنا المجلس التفت إلينا وقال لي: أسئلتك هذه أسئلة رجل من أهل العلم.

٧- **قال الشيخ**: هل ضاق دين الله حتى لا يبدأ المسلم الطَّواف إلا بوجود هذا الخطّ..

٨- **قال الشيخ**: كان يكتب في الأعداد الأولى من **مجلة مجمع اللغة العربية** بمصر فحول الكتاب، انتفعت بكتاباتهم كثيراً، لا يوجد مثلهم في مجلات المجامع الأخرى، ولا في هذه المجلة نفسها بعد ذلك.

٩- **قال الشيخ**: فتاوى شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّة ـ رحمه الله ـ هي أعظم عملٍ علمي تفاخر به بلادنا.

١٠- **قال الشيخ**: قرأتُ في كتاب بلوغ الأرب لمحمود شكري

الألوسيّ كلاماً يقع في صفحة كاملة استكثرتُه على متأخّر.. فتبين لي بعد ذلك أنه نقله بتمامه من مقدمة ابن خلدون دون أن يشير إلى ذلك.

قلتُ: أفاد الألوسي في أحد كتبه من كتابٍ لأحمد فارس الشدياق كثيراً، لكنه لم يشر له في موضع واحد.

١١- **قال الشيخ**: لما زرتُ الأردن سألني طلبة العلم هناك عن الشيخ الألبانِيِّ، فقلتُ لهم: هو صاحب فَنّ، فسرَّهم جوابي، فقالوا: والشيخ محمد الأمين الشنْقِيطيّ؟ **قال**: فقلت لهم: هو صاحب فنون!

١٢- **قال لي الشيخ** في ليلةٍ من الليالي: لو رأيتَني البارحةَ في هذا المجلس وأشار ـ رحمه الله ـ إلى مجلسٍ مجاور.. **قال**: لو رأيتَني وأنا أقرأ سيرة شيخِ الإسلامِ ابن تيمية رحمه الله؛ وقد غلبني البكاءُ لشدّة ما أثّرتْ فيَّ حياة هذا الشيخ..

ثم **قال**: هذه هي الحياة، أين نحن منهم.

١٣- قلتُ للشيخ: قرأتُ في أحد الكتب التي أُلِّفت عن الشّاعر أحمد شوقي؛ أنه كان يعجب من قِلّة ذكر شعراء العرب للنّخلة في شعرهم..

فقال الشيخ: العربُ كانت ترى أن من العيب غرسَ النّخل

وتربيةَ البقر، ولازال هذا في الأعراب إلى يومنا هذا، **قال**: وقد سمعتُ من شَيخِنا محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ بيتاً من الشِّعر ينشده لأحد الشعراء يمدح فيه قوماً يقول فيه:

لا يَغرِسون فسيلَ النَّخْل حَولَهُمُ   ولا تَخاور في مَشتاهُمُ البَقَرُ

قلتُ: هذا البيت في جملة أبياتٍ للعبّاس بن مِرداس السُّلَمي يمدح بها قومه، سمعتُ الشيخ الشنقيطي يُنشدها في أحد الأشرطة المسجلة من مجالسه في التَّفسير.

١٤ - **قال الشيخ**: لما أَلّفتُ كتابي **طبقات النّسّابين** انتشر في العراق انتشاراً عجيباً لم ينتشر مثله في بلد آخر.

١٥ - قلتُ للشيخ: إن الحافِظَ السُّيُوطيَّ ثار به صوفية الخانقاه التي كان يتولى نظارتها لأنه قال: إنكم لستم على شرط الواقف، فثاروا به وحملوه وألقوه في فسقية الماء بجُبّته وعمامته.. ذكر ذلك تلميذه ابن إياس في **بدائع الزّهور**، وأنه خرج من الماء وأصلح ثيابه ثم توجّه إلى روضة المقياس فسكن هناك، وأغلق النافذة التي تجاه النيل، وألّف كتابه **تأخير الظُّلامة إلى يوم القيامة**، وانقطع بعدها هناك إلى التأليف حتى وفاته.

فقال الشيخ ما معناه: ليتني أستطيع أن أنقطع إلى العِلم لا يشغلني عنه شيء.

١٦ - **قال الشيخ**: المغاربةُ لهم أنظارٌ ومـداركُ في العلـم ليـست عندنا نحن المشارقة.

١٧ - **قال الشيخ**: لو كتبتَ اسم شيخ الإسلام ابن تيميـة عـلى ورقة بيضاء لاشتراها الناس..

وسألتُه: هل ذكر شـيخ الإسـلام في شيءٍ مـن كتبـه أنـه عـربيٌّ النَّسَب؟ **فقال**: لا أعرف هذا، ما أبعدَ شيخَ الإسلام عن ذكر مثـل هذه الأمور!

قال: لكنّه عربيٌّ من بني نُمَير.. قلت: وابن القيم؟

قال: لا، لم يكن ذا أصل عربي.

١٨ - قلتُ للـشيخ: حـين زرتُ الـدكتور محمـود الطنـاحيّ في مصر؛ أخبرتُه أنكم ذكرتُم في بعـض كتـبكم أن الـزِّرِكليّ لم يـترجم في أعلامه لأحدٍ من سلاطين آل عثمانَ لعصبيته العربيـة، وأنكـم لم تروا من نَبَّه على هذا قبلكم، وأن الطناحيّ قال لي: سلّم على الشيخ بكر وقل له: بلى، نَبَّه عليه أحـد الكتـاب، ثـم قـام وأحـضر كتابـه وأراني الموضع، وهـو كـان طُبـع قبـل الكتـاب الـذي ذكـرتم فيـه ما ذكرتم، **فقال الـشيخ** وكأنّـه ضـاق صـدره بعـض الـشيء: والله ما قرأتُ هذه المعلومة لأحد، وإنما هو شيءٌ توصّلتُ إليه ابتداءً.

قلتُ: ليس كلُّ سلاطين آل عثمانَ على شرط الزِّرِكليّ..

١٩ - **قال الشيخ**: كان أحمد حسن الزّيات صاحب **الرسالة** يكتب بالفرجار والمسطرة.. وكان الشيخ معجباً بأسلوبه.

قال: له مقدِّمات **للرّسالة** من أرقى الكتابات، إذا أردتَ أن تعرف قيمتَها فاقرأ المقدّمات التي يكتبها غيره **للرّسالة** في بعض الأحيان.

قال الشيخ: ألقيتُ كلمةً في أحد المحافل أفدتُ فيها من بعض مقدِّمات الزيات هذه.

٢٠ - **قال الشيخ** ـ رحمه الله ـ: قال لي سماحة الشيخ عبدالله ابن حُمَيْد ـ رحمه الله ـ لما رأى توافري على دراسة تراث ابن القَيِّم: ما أظن إلا أن الله ـ سبحانه ـ قد ادّخر لك هذا الخير حين صرف كثيراً من أهل العلم عن خدمة علمه وهيأ ذلك لك.

* * *

للورّاق المشهور في وقته زكي مجاهد ـ رحمه الله ـ مؤلَّفٌ عُرف به عنوانه **الأعلام الشرقية** هو متداول بين القراء..

لكنْ له مؤلَّفٌ آخر قَلّتْ نسخه بين أهل العلم فهو يُعدّ في نوادر المكتبة العربية عنوانه **الأخبار التاريخية في السيرة الزكية**، ذكر

فيه طرفاً من ترجمتِه، وتاريخِ عائلته، وأسفارِه، ومن لقيه من الأعلام..

جاء في الصفحة الثّانية والخمسين منه هذا النّص: «**الرّحلة الحجازية**: وهي رحلة العمرة في مكة المكرّمة وزيارة المدينة المنوّرة.. سافرتُ على بركة الله من منزلي بشارع نجيب شنودة شبرا مصر القاهرة في شهر رمضانَ المُبارك سنة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.. وَصلْنا بالسّلامة المدينة المنوّرة على صاحبها أفضل الصَّلاة والسَّلام.. وفي ثاني يوم ذهبتُ إلى المحكمة الشّرعية بجوار المسجد النبويّ لزيارة قاضي المدينة الأستاذ بكر أبو زيد، وهو شابٌّ عالمٌ جليلٌ واسعُ الاطّلاع، ومِن المُشتغلين بالعِلْم وجمعِ كتب الحديث النبويّ والدينية [كذا]، وكان زارني في مكتبتي بالقاهرة، وسلّمتُ عليه وأهديتُه الجزء الرابع من كتابي **الأعلام الشرقية**».

أشَعَرتَ كيف غدا الأستاذُ الشابُّ ـ بعد ذلك ـ الشَّيخَ العَلّامة...

ثنتا عشْرة..
فيها ابنُ دقيقٍ وكافكا وفَتَيات بِسمارك

«...اللهمّ إنا نسألك ما نسأل؛ لا عن ثقةٍ ببياضِ وجوهنا عندك، وحسنِ أفعالِنا معك، وسوالفِ إحساننا قبلك، ولكن عن ثقةٍ بكرمك الفائض، وطمعاً في رحمتك الواسعة.

نعم؛ وعن توحيدٍ لا يشوبه إشراك، ومعرفةٍ لا يخالطها إنكار.. وإن كانت أعمارنا قاصرةً عن غايات حقائقِ التوحيد والمعرفة؛ فنسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك، فتشمتَ بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك.

اللهمّ يا مولج الليل والنهار: عُدْ علينا بصفحك عن زلّاتنا، وأنعشنا عند تتابع صرعاتنا.. وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا لأنك أولى بنا..». أبو حيان التوحيدي

١ - من لا يدرس التاريخ يسخر منه التاريخ..

وإن مما يحيّر فلاسفةَ هذا الساخر ممن لا يدرسه؛ ما ينشأ عن العلّة التافهة من نتائج عظيمة..

وإن كان هناك معنىً يمكن أن يُفهم منه «شيءٌ» من الصلة بين تافِه العِلل وجَسامَةِ الأحداث؛ فأظنّ أنه يَتمثّل في: «ضعف اعتبار الواقع».

كانوا يقولون: إن النعامة إذا أحسّت بالخطر فإنها تدسّ رأسها في التراب، ولقد ظلّت هذه المقولة زمناً مما يتمثّل به كل من رأى ما يستدعي مقولة النعامة والتراب.

ثم جاء بعضُ الدارسين ورفع الظلم عن النعامة؛ وأبان أنها إنما تفعل ذلك لا لتتخفّى، وإنما لتسمع وقع أقدام العدوّ فتحدد مسافة الخطر القادم.

من يستطيع أن يفسّر لنا ما نحن فيه تفسيراً علمياً يدفع به عنا تُهمةَ العجز والجهل؟

٢ - «أنا من حَجَر، بل أنا حَجَرٌ لقبر نفسي، لا منفذ فيه للشك أو للإيمان، للحبِّ أو للنفور، للشجاعةِ أو للقَلق، على وجه التخصيص أو وجه التعميم: كلّا، بل ثَمَّ أمل واحد غامض يحيا، لكنه من نوع شواهد القبور».

كلّما قرأتُ لفرانز كافكا (١٨٨٣-١٩٢٤م) تولّتني عاطفةٌ حزينةٌ لا أكاد أتبيّن مأتاها..

مات: «هذا الألماني المسلول الشريد في دنيا اللامعقول» في مصحٍّ لا يكاد يعرفه فيه أحدٌ عن إحدى وأربعين سنة، بعد أن رفض رئيسه في العمل أن يمدّد إجازته وهو يُحتضر.

وكان قد عاش حياةً عانى فيها من: تسلّطِ الأب، ومرارةِ الوَحدة، وظلامِ الفطرة، وخواءِ الروح، وويلاتِ الأرق، وآلامِ العبث، وشقاءِ الأسئلة، وبؤسِ الإجابات، وقسوةِ الإلحاد، ويُبسِ العدم، وحِدّةِ الاغتراب الوجودي ما عاناه..

ثم إن العالم تَنَبَّه له بسبب صديقٍ له سعى في نشر أدبه يُدعى ماكس برود، فما كُتِبَ في القرن العشرين عن كاتبٍ بعد ذلك ما كُتِبَ عنه: أزيد من ستة عشر ألفاً ما بين مقالةٍ وبحثٍ وكتابٍ في كثيرٍ من اللغات، منها ألفا رسالة دكتوراه! حتى إنه كُتبتْ مقالاتٌ في تحليل فرقة شعر رأسه التي ظهر بها في بعض الصُّوَر.

ثم هنالك المهرجانات والمئويات والندوات وطوابع البريد...

وتقصٍّ لكلِّ مكانٍ عاش فيه أو مرَّ به أو ذكره في كتابٍ من كتبه، وتتبُّعٌ لكلِّ من عرفه أو حادثه أو رآه .. وكتبت عنه امرأةٌ كانت تلقاه في المصعد ـ مصادفةً ـ عدة مقالات.

تنازعتْه ثلاث دول: ألمانيا والنمسا والتشيك.

وبيعت مخطوطةٌ لكتابٍ من كتبه بخطّه في مزادٍ عالميٍّ بما يعدل سبعة ملايين ريال، ابتاعتها حكومة ألمانيا وكانت رصدت لها أضعاف هذا المبلغ.

ثم ماذا؟ كلّما قرأتُ لك يا فرانز تولّتني عاطفةٌ حزينةٌ لا أكاد أتبيّن مأتاها..

٣- **في الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد للأُدْفُويّ**، ترجمةٌ نفيسةٌ للحافظ ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ جاء فيها:

«ولما عَزَل نفسَه ثم طُلب ليولّى، قام السلطان الملك المنصور لاجين له واقفاً لما أقبل، فصار يمشي قليلاً، وهم يقولون له: السلطان واقف فيقول: «أَدِيني أَمشِي!» وجلس معه على الجوخ حتى لا يجلس دونه، ثم نزل وغسل ما عليه واغتسل وقبّل السّلطانُ يدَه، فقال: «تنتفع بهذا!»».

٤- يوم كنتُ أتأدّب! قلتُ على معانيهم:

البيدرُ احترق

وقلبي الرَّغيفُ

وهذا جوعُ أحزاني..

وكان لي عدوٌّ من الأصدقاء كان مثلي يتأدّب لكن على شيءٍ من

«اللؤم»، فهو لا يكاد يسلّم لي بموهبة.

فتحيّنتُ منه غِرّةً يوماً فقلت له هكذا في أثناء الكلام:

ما أروع ما قال شكسبير: «أجملُ ما في الّلوحة؛ الإنسانُ الذي يتأمَّلُها»..

فأَخَذتْه الكلمةُ من نَفْسِه ثم لم يَعُد..

فقلت له: ارفق بنفسك، فوالله ما عرفها شكسبير وإنما الكلمة لي..

فتغيّر وجهه، وانتفختْ منه هذه التي تقول العرب إنها تنتفخ في مثل ما هنا؛ نعم أَوداجُه.. ثم قال: الحقّ أن الكلمة ليست بذاك!

٥ - قرأتُ أن أكثر ما أقسم الله به من المخلوقات في كتابه هو «الليل..» جاء القسم به في سبع آيات: أولها: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾.. إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

كم رجع عَوْدي على بدئي حين تذكّرتُ بهذا قول يونج: «بالليل يعود المُلحدُ نصفَ مؤمن بالله» سبحانه..

هذا يمهّد لمقالةٍ يُشبه عنوانُها أن يكون: «الملاحدة والليل».

٦ - بِيعَت قبل مدّة في الرياض مكتبة أحمد نجيب الهلالي آخر رئيس لوزراء مصر قبل الثورة..

مازلتُ أُصرُّ على أنه لا أثر للحملة الفرنسية على مصر فيما

يـسمّونه: الـصدمة الثقافيـة، وبدايـة التـاريخ الحـضاري المعـاصر للعرب.. وإنما الأثر جاء بعدُ على يد محمد علي باشا فيما أرسله مـن بَعَثات علمية، وما أنشأه من مطبعة بولاق، وجريدة الوقائع..

لهذا فرحتُ لما ظَفِرتُ من هذه المكتبة بكتـاب **البَعثـات العلميّـة في عهد محمد علي** للأمير عمر طوسون، لاسيما وأن عـلى الكتـاب خـطَّ **الأميرِ نفسِه يهديه إلى الهلالي سنة ١٩٣٥م.**

وبينما كنتُ أُقلّبُ الكتابَ وقفتُ فيه على هـذه اللطيفـة: «يوسـف أفندي الأرمني، أُرسل إلى فرنسا لتلقي علم الفلاحة، وكان يتلقاها في بلدة (روفل)، وكان راتبه الشهري خمسمائة قرش، قام من فرنسا في أوائل سنة ١٨٣٢م، وترقى فـيما بعـد إلى نـاظر مدرسـة الزراعـة بنبروه، ثم ناظر بساتين محمد علي وأنجاله، **وباسمه سُمّيت الفاكهة المعروفة بيوسف أفندي لأنه هو الذي أوجدها بمصر**»!

٧- الإغراق المبالغ فيه في تتبّع الأحداث ربما حمل الإنسان على اليأس، وشدّة تحسّس خطرات النفس خوفَ السقوط ربما أسرعت بالإنسان نحو الهاوية.. كالذي يتعلّم قيادة الدراجة؛ إذا رأى حجراً من بعيد حمله لا شعوره ـ من فرط الخوف ـ على التوجه إليه.

ويظل العلـم مـسؤوليةً لا متعـة، وفي صـدق الالتجـاء إلى الله سبحانه ـ ولاسيما أوقات السحر ـ منجاةٌ من كثير مـن آلام الحيـاة

التي باتت تَحطِم فينا معنى الحياة.

٨- في الذهب المسبوك في ذكر من حَجَّ من الخلفاء والملوك لمؤرخ مصر تقيّ الدين المقريزي: «السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي محمد.. ومدة سلطنته في المدد الثلاث ثلاثٌ وأربعون سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام، وحج فيها ثلاث مرات.. ثم حج في سنة تسع عشرة وسبعمائة.. واجتمع عند السلطان من العربان ما لم يجتمع لملكٍ قَبله.. وصاروا يعملون عليه إدلالاً زائداً، بحيث قام في بعض الأيام ابنٌ لموسى بن مهنا وقال للسلطان: يابا علي بحياة هذه [لا يجوز الحلف بغير الله] ومدَّ يدَه إلى لحية السلطان ومسكها إلا أعطيتني الضيعة الفلانية؟ فصرخ فيه الفخر ناظر الجيش وقال: ارفع يدك، قطع الله يدك، ولك يا ولد الزّنا، تمد يدك إلى السلطان! فتبسّم السلطان وقال: يا قاضي، هذه عادة العرب إذا قصدوا كبيراً في شيءٍ، يكون عظمته عندهم مسك ذقنه، يعني أنه قد استجار به فهو عندهم سُنَّة، فقام الفخر مغضَباً وهو يقول: والله إن هؤلاء مناحيس، وسُنّتهم أنحس منهم، لا بارك الله فيهم».

تعال يا ناظر الجيش؛ لا تكن ملكاً أكثر من الملك نفسه!

٩- ذكر إميل لودفيج كاتب التراجم الذي كان يقول: «على المترجم أن ينشئ إنساناً لا أن يصوغ تمثالاً من النُّحاس»؛ ذكر في

كتابه عن **بِسمارك** صاحب الوحدة الألمانية.. أنه لما أراد بسمارك أن يقرّ دستوراً لألمانيا واجتمع بمرؤوسيه؛ اقترح عليه أحدهم أن يستعين بالدستور البلجيكي، فالتفت إليه بسمارك وقال له: «إنّ الدستور البلجيكي عمره ثمانية عشر عاماً، وهذا عمر يَجْمُل بالفتيات لا بالدساتير!».

والله إنه لجهلٌ من هذا العقل التراكميّ القاصر أن يحكمَ نفسه ويتركَ شِرْعَة ربِّه.. ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا**﴾.

١٠- لم أقرأ فيما قرأتُ:

١- أعقل من هذه الكلمة لمحمد كرد علي: «حفظ مسائل العلم التي قالها أهلُ العقول؛ لا تجعل ممن استظهرها عاقلاً إن لم يكن ذا عقل».

٢- ولا أنفذ من هذه الكلمة لغوستاف لوبون: «آراؤنا – في الغالب – مقدِّماتٌ لأفكار تتكوّن ولمّا تستقرّ بعد».

٣- ولا أشدّ إيلاماً من هذا البيت لمحمود أبو الوفا:

أودُّ أضحكُ للدنيا فيمنعني ... أن عاقبتْني على بعضِ ابتساماتي

١١- دونك بعض ما نحن فيه من خطاب الخَيبة:

١- في مقدّمة **تحرير المرأة** ط ١٨٩٩م لقاسم أمين: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله».

٢- في بداية ترجمة طه السباعي باشا لحريّة جون ستيوارت مل، والكتاب يُعدّ إنجيل الليبرالية ط ١٩٢٢م: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله».

٣- في أول كتاب **الإسلام وأصول الحكم** ط ١٩٢٥م لعلي عبدالرّازق: «بسم الله الرحمن الرحيم، أشهد أن لا إله إلا الله، ولا أعبد إلا إياه، ولا أخشى أحداً سواه، له القوّة والعزّة، وما سواه ضعيف ذليل، وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وأشهد أن محمداً رسول الله، أرسله شاهداً ومبشّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وصلى الله وملائكته عليه وسلموا تسليماً كثيراً».

هذه الكتب هي من السوء إلى ما هي ورأيتَ افتتاحها.. جَلدونا ـ حسبهم الله ـ بسياط الخطاب المدنيّ المعاصر؛ حتى بات بعضُ مثقّفينا يستحيي أن يفتتح كتابه بذكر الله عزّ وجَلّ.

وحين يُلقي أحدُ الدعاة المعروفين محاضرةً في «المسجد» عن عبدالوهاب المسيري؛ ثم أطالع كتب المسيري المتأخرة فلا أراه ابتدأ واحداً منها بذكر الله عزّ وجَلّ؛ فإن ثنائية المسجد و**العلمانية الجزئية** تحتاج في تفكيكها إلى عملٍ عقليٍّ مُجْهِد.

١٢- كيف أصبحتُ الشَّخصَ الذي أنا هو، هل أنا نفسي فعلاً، أم صنع منّي الآخرون بالأحرى الشَّخصَ الذي أنا هو؟

يومَ تقوى المعرفةُ على أن تُنبِّه فينا هذا السؤال الكافكاويّ؛ فإننا قد نكون قاربْنا الوعيَ بذواتنا شيئاً ما..

***

● **عن عبدالوهاب المسيري..** المسيري قامةٌ فكريّةٌ عاليةٌ لاشك، لكنّي آخذُ عليه كثيراً:

١- ماذا حين يُنعت بالمفكّر الإسلاميّ؛ ثم أجده قد تجاهل النصَّ الشرعيَّ فاستبعده تماماً من نِتاجه المعرفيّ كله؟

أين الآياتُ وأحاديثُ الفتنِ والملاحمِ وأشراطِ الساعة فيما كتَبَه عن اليهود؟

إنه ليس كلّ من التقى وإياك في النتيجة يصدر ـ لا محالة ـ عن مقدّماتك..

هو مفكّرٌ إذن بلا إسلاميّ: من يَستبعد الوحي عن مصادر المعرفة، ويتمثّل في تحليله الحضاريّ أحدَ المنهجيْن الفلسفييْن: المثالية أو المادية...

جارودي، تشومسكي، إدوارد سعيد، المسيري..

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: «طُرق العلم ثلاثة: الحسُّ والعقل والمركّب منهما كالخبر، فمِن الأمور ما لا يمكن علمه إلا بالخبر، كما يعلمه كلّ شخص بأخبار الصادقين كالخبر المتواتر، وما يعلم بخبر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.. ويمتنع أن يقوم دليل صحيح على أن كلّ ما أخبر به الأنبياء يمكن معرفته بدون الخبر [الخبر: الوحي].. ولهذا كان أكمل الأُمم علماً المُقِرُّون: بالطُّرق الحسية والعقلية والخَبرية، فمن كذّب بطريق منها؛ فاته من العلوم بحسب ما كذّبه من تلك الطرق».

درء تعارض العقل والنقل ١/ ١٧٨، بدلالة: عادل التل، **النّزعة المادية في العالم الإسلامي**، ص٥٧.

٢- ماذا حين لا يوجد له ـ وهو الأكاديميّ البارز ـ في كتاب ضخم من كتبه **كالعلمانية** هامشٌ واحدٌ لموارده الفكرية، ولا ثَبَتٌ بالمصادر والمراجع؟

أين من هذا الخليط المعرفيّ محضُ أفكاره، وأين أفكارُ غيره ولاسيما المدرسة الفرانكفورتية التي كان كثيرَ الاستفادة منها وعلى رأسها الاجتماعيُّ البارز ماكس فيبر؟ (المجتمعُ التراحُميّ والمجتمعُ التعاقُديّ أهم أفكار هذه المدرسة).

هل يسجِّل أحدُ الدارسين أطروحة عنوانها: **الموارد الفكريّة في دراسات المسيري**؟

٣- هذا التكرار في كتبه.. والاعتسافُ والقَسْرُ في تفسير الظواهر حتى خرج بقارئه إلى الملل من شدّة تكلّفه في اصطناع هذه الطريقة..

يغلبني الاستياءُ وأنا أقرأ المبالغات حين نرسم لمشايخنا نموذجاً ثم نُهندِسُ ترجمتهم وَفْقه لا على ما هم عليه، هذا الداء ليس بمستشرٍ عندنا وحدنا، فهو عند المتصوّفة والشيعة والزيدية.. لكن كنتُ أحسب أن أهل الفكر ـ بما هم أهل فكر ـ بمنجاةٍ عن مثل هذا، حتى إذا طالعتُ كثيراً مما كُتِبَ عن المسيري علمتُ أن الداء واحد، وأنه في كل وادٍ بنو سعد.

يبدو أن رذيلة المبالغة كامنةٌ في أصل فطرتنا حين نتحدّثُ عمّن نحبّ؛ أنّى اتجهت ركائبنا، وحيث اختلفت بنا السُّبُل..

خواطرُ حول كتابات
أبي عبد الرّحمن ابن عقيل*

أنا فتىً غريرٌ أدرج بخطوات واسعة نحو السادسة والعشرين من سنيْ حياتي، فلا غرابة من أن ينتاب رأيي ما ينتاب آراء لداتي

---

* كنتُ كتبتُ سنة (١٤١٢هـ) ورقات سمّيتُها: **المَهامِه الفيح في نقد تباريح التباريح**، وهي نقدٌ لكتاب شيخنا العلّامة الكبير أبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري **تباريح التباريح**.

اختصرتُ تلك الورقات فكانت هذه المقالة، وهي أوّل شيءٍ نشرتُه (**مجلة اليمامة، عدد ١٣٠٣، ١٤١٤هـ**)، وقد استُقبلت استقبالاً فرحتُ له.

حين أتذكّر ما كنتُ عليه من حماس، ثم أقيس قوّتي اليوم إلى قوّة الحياة؛ أضعف كثيراً.. لكني أتأبى على الحياة أن تجعل منّي مخلوقاً غايته أن يحافظ على النّوع؛ فأعود ـ والله ـ أنهض.. (حقُّ عنوان هذه المقالة: خواطرُ عن كتابات..). ليس الخوف على اللغة العربية من دخول بعض الألفاظ الأجنبيّة عليها، وإنما الخوف من فساد التركيب العربيّ.. هذا النَّفَسُ البيانيُّ الذي فقدتْه أكثر الكتابات المعاصرة.

وأترابي من ضعف ووهن، بسببٍ من قلّةِ الاطلاعِ، وضحالةِ المعرفة، وقصورِ الخبرة والتجربة في هذه الفانية.

إلا أن شاديَ الأدب منا نحن ناشئةَ الورد، ما فتئ يحاول ـ ما وسعته المحاولة ـ أن يتحسّس الأرض بخطىً حذرة علّه أن يجد موطئ قدم ثابتاً في دنيا المعرفة، فتكلّفه غرارة الشباب مرتقىً صعباً، وتدلف به في طريق وعرة من طرق البحث والمناقشة.

فلا تقوى قدماه الرَّخْصتان على تحمّله، إلا أن يظلع متكئاً على كتف هذا الكاتب أو ذاك، محاولاً أن يفيد منه جزالةً في اللفظ، أو أصالةً في المعنى، ولهذا فإنه ليصدق عليّ إلى حد بعيد قولُ أحد النقاد في بعض الكُتّاب: «لو قلنا لكلّ كلمة له ارجعي إلى صاحبك؛ ما بقيت له كلمة واحدة».

أذكر هذا المعنى لأني أتمثل الحكمة التي تقول: «رحم الله امرأً عرف قدر نفسه»، ولأني رأيت أن بعض أدعياء المعرفة الموهومين، يخالون أنهم قد ملكوا فنون المعرفة كلّها، وحووا أسفار الحكمة بأجمعها، إمّا قرأ الواحد منهم ثلاثة كتب أو أربعة، أو حفظ ستة أبيات لا يكاد يقيم وزن الخامس منها، فصدق فيهم قول الدكتور طه حسين: «كتابنا اليوم يكتبون أكثر مما يقرأون».

ثم لا تسل عن مبلغ غرور أحدهم إذا ما رأى مقالته قد نشرت

ممهـورةً بخاتمـه الكـريم، ولعلـه لا يـدري أن نقيـق الـضفادع في المستنقعات الكدِرة أنغم في الأذن من هذره الرديء المتهالك.

إن الرافعـيَّ والعقـادَ وزكـي مبـارك لـو رُدّوا وتقمّـصوا روح كاتب؛ فلن يكون أكثر غروراً واعتداداً بالنفس من بعـض أوبـاش الأدب ومشعوذي الكلمة هؤلاء.

والأدهى من هذا كلّه؛ أنهم خـدعونا باسـم الأدب فانخـدعنا لهم، ذاك أنا ظننّا أن الأدب سوقٌ قائمةٌ يعرض فيهـا مـن شـاء مـا شاء.. فما هي إلا سنيات قليلة حتى يكتسب المهـذار مـن هـؤلاء لقب الأديب بالتقادمِ، وطولِ العهد بصناعة القلم.. ثم تَزِفُّ عليـه الألقاب تترى، لتعشوَ بلمعانها وبريقها عيني كلِّ قـاصر في المعرفـة والتصور.

والناس ـ مذ كـانوا ناسـاً ـ أشـباه طـير يتبـع بعـضهم بعـضاً، يتوارثون الألقاب ويلوكونها دونما رويّة وإعـمال فكـر، فـأين منـي فسحة الوقت، وصفاء النفس اللذان يجعلانِني أتـوافر عـلى الكتابـة، حتى أضع أنوف بعض هؤلاء المشعوذين ولو لخمس دقائق في التراب حتى يعرفوا أقدارهم الحقيقية؟

إن البغاث ـ يا سادة ـ قد استنسر بأرضنا لا لقـوّةٍ فيـه، ولكـن لضعفٍ في علميّتنا، وتردٍّ في أذواقنا، فلا غرو أن قال اليازجيّ:

إذا هلكتْ رجالُ الحيِّ أضحى صبيُّ القوم يحلفُ بالطَّلاقِ

عوداً على بدءٍ أقول: إني لا أريد لنفسي التشبه بذاك القَدْم الجاهل الذي خدعته الشمس بطول ظلّه، فلما غابت أدرك المسكين قدره الحقيقيّ، إني لا أريد أن أكون قَزَماً متعالماً لا يرى النّور إلا إذا اعتلى ظهور العمالقة، فلا تَخَف يا أبا عبدالرحمن.. إني لن أعتلي كاهلك خوفَ أن تصاب بانزلاق غضروفي كفاك الله شرّ المستشفيات.

إني لم أسمّ ما أكتبه الآن نقداً، لأن للنقد أصولاً معرفية، ومناهجَ تحليلية يصدر عنها الناقد، فتغاير كلَّ المغايرة ما تسطره يراعتي ـ على عجالة ـ في هذه الوريقات.

فمقالتي هذه لا تعدو أن تكون خواطرَ شابٍّ ما زال يتلمّس طريقه في سراديب المعرفة، ورؤى غِرٍّ لما تنضج أفكاره بعد، له بعضُ المطالعات التي لا ترتقي في حقيقتها إلى مستوى هذه الكلمة، ولكنها ـ على قلّتها ـ قد رفعته عن منزلة الدّهماء بعض الشيء، فجاز أن يكون له ما يستطيع أن يسمّيَه خواطر في الأدب، وها هو ذا يحاول جاهداً أن يعرض تصوراته بعبارةٍ نزيهةٍ تتحرى الحقيقة في أرقى صورها، وتتعالى عن معارك الدجاج النافش، وإسفاف القول وهجره، وتحاول بعد ذلك أن تتطهّر من أوضار النفسِ المريضة، ورجسِ الأقلام المغرضة.

قال الكاتب الفرنسي بوفون: «الأسلوب هو الرجل»، والمعنى: أن شخصيةَ الكاتب وتدرّجَ نموّها، ودخيلةَ نفسه ونوازعَها تظهر لا محالة في أسلوبه، مهما حاول التخفي وراء ستار العبارات البليغة والجمل المنمّقة، وأسلوب أبي عبدالرحمن خير دليل على صدق هذه المقولة، إذ هو ـ أي أسلوبه ـ يكشف عن دخيلة نفسه، وينبئ عما وقع فيه الكاتب من حيرة وصراع، ويتضح ذلك لكلّ من عانى قراءة آثاره.

إني حين أغوص في أغوار سريرة الشيخ، أجد ثمّة تلاطماً وصَخَباً، بل وضبابيةً تحول دون بلوغ الهدف في كثيرٍ من الأحيان، وذلك من خلال ما أَستشفّه من آثاره.

فهنالك أمران اثنان يتنازعان الشيخ:

أولهما: هو ظريف تستخفّه المُلحة فينطلق على سجيته فإذا هو غامزٌ لامز، أو ضاحكٌ مقهقه، ثم لا يلبث حتى يطاطئ رأسه على استحياء، لأن للعلم وقارَه وما أثقل تبعات العلم، ولكنه يعود مهما حاول قسر نفسه فالطّبع دون التطبّع، قال غاندي: «من ذا الذي يستطيع أن يقول إلى هنا لا إلى أبعد لأمواج طبيعته الخاصّة».

ثم إن الشيخ ذو روح صهرتها شمس بودلير الحارقة، فذاقت شجنَ الحب ولوعتَه، وعرفت أسرار الهوى وغموضَه، فرقّت

حاشيته، وتهذّبت على ترانيم أنّات الجوى، إن ثمّة قليلاً من الناس يتلمّسون طريقهم في الظلام ليصلوا إلى النور، لقد كان الشيخ واحداً من أولئك النّفر القلائل!

وأما ثاني هذين الأمرين اللذين يتنازعانِه: فهو خوفٌ من الله عزّ وجلّ بسببٍ من حسن النشأة، يصدّه ويردعه إن هو تجاوز القصد، ويمسكه فلا ينطلق فهو كالحصان الذي يدور حول مربطه، إنها الكلمات التي تترسب في أعماقنا غِبَّ زمن اليفاعة، يخيل للمرء أنه نسيها أو هو يتناساها، فإذا ما اتّقد هجير عمره لم يجد ظلالاً غيرها تظلله وتحميه.

لقد صحبتُ أبا عبدالرحمن في كثير من كتبه، وأفدتُ منها معرفةً وأدباً، واستمتعت بها ولا سيما إذا ما كان الكلام عن أيام الصبا وحديث الماضي، ولكن بصري كان يترطم بحجر عثرة، وكانت تفجعني لفظةٌ نابيةٌ شرودٌ من وحشيّ الكلِم، تصرخ وتستغيث قائلة: إن هذا ليس مكاني، فردّوني بارك الله فيكم زهرةً تحيا في **المُزهر**، أو درّةً تزين **تاج العروس**!

قال الناقد القدير مارون عبّود: «إن الألفاظ لا تؤخذ من القاموس، ولكن يُستشار القاموس بشأنها».

فليس بنا حاجة إلى أن يمتطي الكاتب صهوة كُمَيتٍ على الذَّبْل

جيّاش، كأنّ مَتْنَه مداكُ عروس كَجَوادِ امرئ القيس، ثم يغدو في مَهْمَهة مُعجمٍ بها الذئبُ يَعْوي كالخليع المُعَيَّل؛ ليقيّد أوابدَ الكلم ويصطاد حوشيَّها، فيأتي لنا بمقاليع تؤلم الأذن، وتغثو لها النفوس..

أسمعت يا أبا عبدالرحمن؟ إن تضفيرَ المرائر والعرضنةَ والبَراجمَ وسلالَة السنام التامك؛ مما يذيب المرارة في العمل الأدبيّ ويجعل طعمه ممجوجاً، إن الاجترار بمعدتين سيتخمك، ولن ينفعك ساعتئذٍ المشيُ وذرعُ بطن الوادي إذا ما كنتَ بدارتك في الجنوب الغربي!

ليس لنا حاجة إلى أن يدلل الكاتب من طَرْفٍ خَفِيٍّ على عمق صداقته بالخليلِ وابنِ دُريد وابنِ فارس والجوهري؛ لأن العمل الأدبي ليس من جنس أحاجي الحريري ومنظومات رؤبة، ثم ما ذنب القارئ حتى يسهر الليل ويذوق الأمرّين ليفكّ المعضل ويحلّ الطلاسم، أم تراها قد استهوتك طريقة شيخك أبي تراب بروانِفِه وحَماطةِ جُلجُلانه؟

إن العملَ الأدبيَّ تعبيرٌ عن تجربة شعورية في صورة موحية، ودور الألفاظ هو تحويل تلك التجربة الشعورية من إحساسٍ وانفعالٍ مُضْمرٍ إلى عملٍ متجسّد نابضٍ بالحياة، فالألفاظ أثواب نستخدمها لتشخيص المعاني الماثلة في أخيلتنا، فإما أن نعرض أفكارنا وأحاسيسنا بأثوابٍ تشفُّ غلائلهن عن مفاتنهن من جنس نتيج

إيف سان لوران! وإما أن نكسر القلم، فليس بنا حاجة إلى أن نلج محفِل الأدب بمرقّعة عمرو بن عبيدٍ الزاهد فنضحك الناس علينا.

وأخيراً.. فإني أعترف أن لأبي عبدالرحمن فضلاً كبيراً عليّ وعلى أمثالي من ناشئة هذا الجيل فهم السابقون! ولعله كان يسوّد مقالة ساعة مُني والدي بقدوم محدّثكم فأين خطواتي من فراسخه؟

ألا فليغفر لنا شيوخ الأدب هذه الجرأة فما كبيرٌ إلا وإخال النقد أكبر منه، ورغِم أنف الكهولة.. إذ ليس الروّاد بمنجاةٍ عن طائلة شيطان النقد ولو تترَّسوا خلف ألقابهم التي تفوق سنيْ حياتي، بَلْهَ ولو علّقوا في أعناقهم ألفَ تميمةٍ من تمائم الشّهرةِ وبُعد الصيت، ذاك أن النقد إذا أنشب أظفاره في الأثرِ الأدبيّ ألفيتَ كلَّ تميمة تكاد لا تقي ولا تنفع.

الشُّعُور بالنَّقصِ الحضاريّ

وبعد.. فاطّلعتُ على مقالة لأحد الأساتذة نشرت في صفحة التراث من العدد (١٢١٩٨) من جريدة **الرياض** بعنوان: (الآمدي الحنبلي سبق برايل في اختراع الكتابة للعميان).

وجاء في تلك المقالة أن الآمدي: «كلما اشترى كتاباً أخذ ورقة وفَتلها فصنعها حرفاً أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجُمَّل، ثم يلصقها على طرف جلد الكتاب ويجعل فوقها ورقة تثبتها، فإذا غاب عنه ثمنه حسَّ الحروف الورقية فعرفه.

إنه اختراع لم يُسبق إليه الآمدي ـ رحمه الله ـ بهذه الطريقة الفذَّة في كيفية سعر الكتاب، وهذا مما يدلنا على أن الآمدي يُعدّ من المخترعين في فن الكتابة للعميان.. وأول من أشار ونبه إلى هذا العلم الآمدي هو شيخ العروبة أحمد زكي باشا حيث قال رحمه الله:

إن زين الدين الآمدي سبق برايل إلى اختراع طريقته في الكتابة بنحو ستمائة سنة لأن برايل الفرنسي اخترع طريقته في نحو سنة ١٨٥٠م».

انتهى بتصرّف.

ثمّة ثلاثة في العصر الحاضر اعتنوا بالبحث في تاريخنا الحضاري وأتوا بلطائف من جنس ما مرّ ذكره، كان على رأسهم العلّامة أحمد زكي باشا، والآخران هما: الأمير شكيب أرسلان، وميخائيل عواد..

لقد أُعجبتُ بشخص العلّامة أحمد زكي باشا ـ رحمه الله ـ وقرأتُ عنه وله كثيراً، إلا أني كنت أشعر في بداية قراءتي لآثاره بمعنىً يضايقني لا أعلم سببه، فما هو إلا أن استمررت في تقليب آثاره وفتْشِها حتى استبان ما كان غامضاً في نفسي، وإذا هو نقصٌ حضاريٌّ يُطِلّ من خلل كتاباته، نقصٌ أملاه عليه تاريخ مشرق لأمة عظيمة، كانت في يوم من الأيام ملء التاريخ ثم أضحت على هامشه.. لقد دفعه ذلك إلى أن يغمط المكتشفين والمخترعين من الغربيين حقهم، فكان ما إن يعثر على خبر مهمل في حاشية كتاب وردت فيه لفظة موهمة تشاكل شيئاً من مخترعات اليوم؛ حتى يسرع بتقرير ما كان للعرب من سبق في هذا، ويملأ صفحات الأهرام وغيرها بالعنوانات المجلجلة.. والخطب أيسر من هذا كلّه، أيكون

الآمدي الذي فتل من ورقة حروفاً ووضعها على كتاب ليتحسّسها إذا غاب عنه ثمنه؛ سبق برايل في اختراع هذه الكتابة؟

كان مصطفى جواد يقول: «إن التاريخ خير مُرَبٍّ للأمم الضعيفة».

وهذا حقٌّ إذا كانت تلك الأممُ ذاتَ تاريخ، فكيف وليس تاريخٌ كتاريخنا بالأمس، وليست أمة هي في الضعف إلى ما نحن عليه اليوم؟

لست أعيب قراءة تاريخنا الحضاريِّ وتمثّله واستخراج خبيءٍ منه شأنُه أن يبعث فينا ما يحملنا على النهوض ومسايرة الأمم المتحضرة..

لقد ذكر ابن النفيس الدورة الدموية قبل أن تعرفها أوروبا، ولشيخ الإسلام ابن تيمية حديث مؤصّل عن العَقد الاجتماعي قبل حديث روسّو في **عَقده** الذي يعد إنجيل الثورة الفرنسية كما يقال..

لست أعيب ذكر أمثال هذه الأمور المدعومة بالحجة والبرهان مما لا يماري فيه منصف؛ ولكني أعيب على الباحثين هذا الشّعورَ الحادَّ بالنقص الحضاري الذي ألجأهم إلى أن يبخسوا الناس أشياءهم، فجاء منهم ما أضحك العقلاء منا.. فمونتيسكيو قد سُبق في **روح شرائعه** بمقدمة **ابن خَلدون**، وشكسبير عربيّ المحتِد، ولامارتين من

بيت المرتين بلبنان!

بل إن إحدى الباحثات ـ ولها اسمٌ علمي ـ كتبت بحثاً ذهبت فيه إلى أن العرب قد اخترعوا الكمبيوتر قبل الغرب؟ وكان دليلها على ذلك مربعات تشبه الطلاسم وجدتْها في مخطوطة لا أدري شيئاً عن اسمها واسم مؤلفها..

أُحبُّ قبل أن أختم أن أذكر ثلاثة أمور:

أولها: أنه قد ورد لأبي العلاء في لزومياته قوله:

كأنَّ مُنَجِّمَ الأقوام أعمى ... لديه الصُّحْف يقرأها بلَمْسِ

وقد ظن الأستاذ الكبير محمد سليم الجندي ـ رحمه الله ـ أن في البيت إشارةً إلى ما يعرف اليوم بطريقة برايل فقال في **الجامع في أخبار أبي العلاء** ١/ ١٨٤: «ومن الجائز القريب أن يكون أبو العلاء تعلّم الهجاء بالحروف النافرة التي يُعلّم بها المكفوفون في هذا العصر، لأنها كانت معروفة في ذلك العهد على ما يشعر به كلام أبي العلاء حيث يقول: كأنّ مُنجِّم..».

قلت: ليس ذلك له؛ فإن أبا العلاء إنما قصد إلى أن المنجِّم يرمي القول تخرّصاً فليس يصيب الحقيقة، كأعمى يقرأ صحيفة بلمْسٍ فلا هو يظفر من قراءتها بشيءٍ، يدل عليه قوله بعده:

لقد طالُ العناءُ فكم يعاني ... سطوراً عاد كاتبُها بطَمْسِ

لا أن الأعمى يقرأ أحرف الصحيفة النافرة باللمس إذ هذا يغاير ما عناه المعرّي.

والثاني: ثمة كتاب طريف ـ ما دام في الحديث مكفوفون ـ لأحمد الشَّرَباصي عنوانه **في عالم المكفوفين** ط ١٩٥٦م، ما أعلم أطرف منه في موضوعه، فليت بعض الجهات المختصة تتولى إعادة نشره فهو مما يعز وجوده اليوم.

وفي ص ١٢٠ منه حديث عن الآمدي وبرايل وديدموس الذي ظهر في القرن الرابع الميلادي وقيل: إنه أول من ابتكر على الخشب طريقة الحروف البارزة.

والثالث الأخير: نصٌّ قرأته في تعليقات الأمير شكيب أرسلان على **حاضر العالم الإسلامي** ٢/ ٢٩٨ في ترجمة جمال الدين الأفغاني قال: «وحكيتُ له مرّة ـ أي الأمير يحكي للأفغاني ـ أن إحدى جرائد أمريكا بحثت في موضوع اكتشاف تلك القارة، فقالت: يروى أن العرب خاضوا الأوقيانوس الأطلانتيكي ناشدين البرّ الذي وراءه، وسألتْ هل عند مؤلفي العرب شيءٌ من هذا الخبر؟ فعرّبتْ ذلك جريدة النشرة الأسبوعية في بيروت، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت في باريز، فلما اطلعت على القضية لبّيتُ ذلك النداء، وراجعت في المكتبة الوطنية كتب الشريف الإدريسي الجغرافي العربي الشهير،

ونقلتُ من كتابه **نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق** خبر الإخوة المغرورين، الذين ركبوا سفينة من أشبونة وجعلوا فيها كلّ ما يلزمهم من الزاد والماء، وخاضوا بها بحر الظلمات إلى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر إلى جزيرة خالية لم يجدوا بها إلا الوحوش، فركبوا البحر متجهين إلى الجنوب، وبعد نحو شهر أيضاً نزلوا بجزيرة فيها أناسي وملك يحكم عليهم، فقفلوا من عنده متجهين شرقاً، حتى نفذوا بعد مدة إلى مرسى آسفي بالمغرب الأقصى..

فلما أكملتُ له الرواية وأنني حررتها جواباً على النشرة الأسبوعية، وقد أَثَرَتْها عنها جميع الجرائد العربية التفت إليّ قائلاً: «لا أريد أن أسرّ المسلمين بكلمة، هؤلاء قوم كلما قال لهم الإنسان: كونوا بني آدم؛ أجابوه: إن آباءنا قد كانوا كذا وكذا، وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرّفعة لا ينفي ما هم عليه اليوم من الخمول والضَّعَة..».

في كلام نفيس فارجع إليه إن أردت.

عيون ريتا .. والعُزّى

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾..

هذا الذي لم يكن شَيئاً مذكوراً؛ وَيْحَه يُحِبُّ الذِّكْر..

١ - تريدُ نصيحةَ قارىءٍ اهتزّ به كرسيُّ الزّمنِ فأصبح يئنُّ من داءِ التاريخ: **لا تقرأ التاريخ بقلم المُنتصر**..

قال العلّامة الدكتور عمر فرّوخ (١٩٠٤-١٩٨٧م) في ذكرياته الحافلة **غبار السنين** (أجزم أن سيكون القارئ شيئاً آخر بعد قراءتها إن كان ممن يستفيد من تجارب الكبار).. قال عن ألمانيا الهتلرية وهو قد درس فيها تلك الأيام: «حينما كنت أتابع دراستي في ألمانية (١٩٣٥-١٩٣٧م) كانت ألمانية الهتلرية في عنفوان قوَّتها، وكان قد نشأ فيها جيلٌ يرفع هتلر فوق كلِّ شيءٍ في هذا العالم.

كان هتلر خطيباً في جماهير الناس من الطبقة الأولى، كان يطيل ومع ذلك فإن الناس كانوا يجلسون إلى الراديو لسماعه كأنهم في مَعْبدٍ لهم.

خطر في بالي يوماً أن أسمع هتلر يتكلم وأنا أراه، كان موعدُ الخطاب الساعةَ الواحدةَ بعد الظهر وفي ذلك امتحان لتعلّق الناس به.

ذهبتُ إلى الباحة التي يلقي فيها خطبه في العادة، وكنت سعيداً لأنني وجدت موطئ قدم على بعد مترٍ واحدٍ من الشريط الشائك الذي يفصِل جماهيرَ النّاس عن الرجال الرسميين وعن الجنود المكلّفين بالحماية.

ولم يَحِن موعدُ الخطاب حتى كان الناس قد ملأوا الساحات والباحات والواحات وشُرُفات المنازل المطلّة على مكان الاجتماع. وطال الخطاب ساعتين لم تكن تسمع في أثنائهما صوتاً ولا همساً، وكان إلى قربي امرأةٌ تحمل طفلاً رضيعاً لا أذكر أنه بكى..

إذا كنت تعني أن التنظيمَ وضبطَ الأمور هما من الاستبداد؛ فإن ألمانية كانت في ذلك الحين في قمّة الاستبداد.

يتفق مثلاً أن ينقطع ورود البيض من بلغارية أو تقصِّر المزارع الألمانية في صنع الزبدة في فصل ما، ثم تدخل أنت دكاناً ليس فيه إلا بيضة واحدة، وربع كيلو من الزبدة، فتشتري تلك البيضة وهذه

الزبدة بالثمن الذي كنت تشتري مثلهما بالأمس أو قبل الأمس.

وكانت محطّة فريدريك بين المنزل الذي أسكنه وجامعة برلين، وكنت أمرُّ من تحت جسر هذه المحطة مراراً في كلٍّ يوم، وكانت تلك المحطة تستقبل كلَّ دقيقتين قطاراً أو تودِّع قطاراً، وكان ذلك الجسر من القرميد.. وخطر للدولة أن تبدِّل القرميد في الجسر بحديد، وفي أربع وعشرين ساعة أصبح الجسر من القرميد جسراً من حديد، ولم يتأخر قطار عن موعده جزءاً من دقيقة.

أفضل الفواكه البرتقال لأنه لا يختمر في المعدة، وهو عندي فاكهة مفضَّلة في الحضر والسفر، خرجت في ٢٠/ ٤/ ١٩٣٦م أريد أن أشتريَ شيئاً من البرتقال فلم أجد في السوق حَبّةً منه، فسألتُ البائع عن سبب ذلك فقال: اليوم مولد هتلر تقام الاحتفالات به في جميع أنحاء ألمانية، والبرتقال اليوم تشتريه الدولة لأن هتلر لا يشرب الخمر ولا يقدِّم الخمر في مثل هذه المناسبة.

يستخدم هتلر سيارة مرسيدس بنتز ذات رقم عاديّ، على لوحة باللّون الذي تكون منه جميع لوحات السيارات الأخرى..».

قلت: هذا هو التاريخ الذي لم يكتبه الخُلَفاء..

٢- «يذكِّرني هؤلاء الفلاسفة: بصاحبِ الدُّكان الذي سألتُه مرَّةً عن أقصر الطرق إلى ونشستر يوم تهت وأنا ذاهب إليها على

متنِ درّاجة.. فنادى على رجل بالركن الخلفيِّ قائلاً:
أَحدُ السادة يريد معرفة أقصر الطّرق لونشستر.
أجاب صوتُ شخصٍ غير مرئي : ونشستر؟ نعم.
الطريق لونشستر؟ نعم.
أقصر الطرق؟ نعم.
لا أعرف!

أراد معرفة طبيعة السؤال بوضوح، ولكنه لم يهتمّ بالإجابة عليه، هذا بالضبط ما تفعله الفلسفة الحديثة للباحث الجادِّ عن الحقيقة، فهل يكون غريباً أن يتحوّل الشباب إلى دراسات أخرى؟».

برتراند راسل (ت ١٩٧٠م).. **مختاراتٌ من أفضل ما كتب**، ترجمة محمد قدري عمارة، ص٤٩. **الفلسفة وقضايا الحياة** سلسلة حوارات مع برتراند راسل، ترجمة علي مصباح، ص١٩.

٣- انقدح في ذهني: أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرة لمّا عجز عن أن يأتي بِمِثْل القرآن، ثم قال مكابراً: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾؛ جعل الله - سبحانه - من قوله هذا قرآناً يتلى، ليكون أشدَّ في النّكاية به، وأبلغَ في إظهار ضعفه وعجزه.. كأنّه قال له: سنجعل من نفيك أن يكونَ القرآنُ كلامَ الله؛ مِن كلام الله..

٤- فارس الخوري (١٢٩٠-١٣٨١هـ): من نصارى سوريا،

وهو كان من رجالات العرب لوقته، سياسيٌّ ومعلِّمٌ وخطيبٌ، وشاعرٌ وقانونيٌّ كبير.. واسعُ المعرفة، سريعُ البديهة، حاضرُ الذهن، ذو سيرة حافلة.

كان يحمل على الدوام سُبحةً لا تفارقه، له معها نوادر وحكايات، ولما حضر مجلس الأمن غدت معروفةً لكثرةِ ما كان يداعب حباتِها، وذاتَ يوم سأله وزير خارجية بريطانيا أرنست بيفن:

ماذا تقول يا مستر خوري وأنت تداعب حبات سُبحتك؟

فأجابه فارس مبتسماً: أردِّد: اللهمّ أَلْهِم مستر بيفن الحق، اللهمّ أَلْهِم مستر بيفن الحق!

كان في مجلسٍ من المجالس فجرى نقاشٌ أدبيٌّ عن أيتها أولى بالمحلِّ العالي في الأدب من صاحبتها؛ أَمَيّ زيادة أم ماري عجمي؟ وكان فارس ينتصر لبلديَّته ماري عجمي على ميّ زيادة فقال على البديهة:

يا رجال الألمعيَّه اسمعوا هذي الشهاده
إنَّ ماري العجميَّه هي ميٌّ وَزِياده!

لحنّا خباز وجورج حدّاد كتاب عنه عنوانه **فارس الخوري حياته وعصره** لم أطّلع عليه، ولمحمد الفرحاني كتاب **فارس الخوري وأيام لا تُنسى**، وكتبتْ عنه حفيدته الأديبة كوليت خوري

كتاباً ماتعاً عنوانه **أوراق فارس الخوري**...

قال عنه تلميذه الشيخ علي الطنطاوي في **مذكّراته** ٢/ ١٦٦، ١٨٦: «هو العالم الشاعر الفحل الخطيب البارع في العربية والإنكليزية، رئيس مجلس النواب مرات، ورئيس مجلس الوزراء، وكان رئيس مجلس الأمن مرّة.. أحد عباقرة العرب في هذا العصر علماً وفكراً وبياناً، وكنت أعجب منه كيف يكون له هذا الاطّلاع على الإسلام وهذا العقل، ولا يهديه عقله إلى اتباع دين الحق الذي لاحقَّ في الأديان غيره، لاسيما وأنه كان يتمسَّك بأوهى خَيْطٍ من النصرانية فقد كان بروتستانتياً، بل كان أقرب إلى أن يكون بلا دين.

فلما مَرِض وطال مرضُه رأيناه كلّما عاده أحد من المسلمين حدَّثه عن الإسلام، وكان يُكثر أن يطلبَ من شيخنا الشيخ محمد بهجت البيطار ومن غيره أن يقرأ عليه القرآن، وأوصى - ونُفِّذت وصيّته - أن يُتلى القرآن في مجلس التعزية به إذا مات.

فكنت أحار في تفسير هذا كلِّه، حتى نشر الأستاذ محمد الفرحاني كتابه عنه، وقد كان ملازماً له في مرضه لا يفارقه أبداً، فإذا هو يؤكد أنه مات على دين الإسلام»..

قلتُ: كنتُ أتردَّد ـ في بعض الأحيان ـ على الأستاذ عاصم ابن العلّامة محمد بهجت البيطار ـ رحمهما الله تعالى ـ أسأله عن والده

وعن العلمِ وأهلِه.. وكان بَيْن والده العلّامة محمد بهجت وفارس الخوري صلةٌ قويةٌ، فسألته يوماً: أستاذ عاصم؛ هل أسلم فارس الخوري؟

فقال لي: زار والدي فارسَ الخوري في مرضه الذي توفي فيه، زاره في المستشفى وما كانوا يُدخلون عليه أحداً لحراجة حاله، لكن لمّا رأتْ زوجةُ فارس الخوري والدي - وكانت تعرف ما بينهما - سمحت له بالدخول عليه لعلمها بأن ذلك يسرّه، وكان الخوري من الضعف إلى ما هو، فلما رأى والدي نظر إليه طويلاً وبكى، وبكى والدي لبكائه وخرج، ثم لم يلبث فارس الخوري أن توفي، وشاع عند الناس بعد هذه الزيارة أنه أسلم وقتها، لكن والدي قال: ما سمعتُه نطق الشهادة.

انتهى ما حدّثنيه الأستاذ عاصم، فعسى أن يكون فارس الخوري ممن خُتم له بخير..

٥- قال كارل بوبر (١٩٠٢-١٩٩٤م): «بدأ عملي في فلسفة العلم منذ خريف ١٩١٩م حينما كان أول صراع لي مع المشكلة: متى تصنَّف النظرية على أنها نظرية علمية؟ أو هل هناك معيار يحدِّد الطبيعة أو المنزلة العلمية لنظرية ما؟

لم تكن المسألة التي أقلقتني: متى تكون النظرية صادقة؟ ولا

متى تكون النظرية مقبولة؟ كانت مشكلتي شيئاً مخالفاً.. إذْ أردتُ أن أميز بين العلمِ والعلمِ الزائف، وأنا على تمام الإدراك بأن العلم يخطئ كثيراً، وأن العلم الزائف قد يحدُثُ أن تزلَّ قدمه فوق الحقيقة». عن كتاب فلسفة كارل بوبر ليمنى الخولي، ص٧.

قال كارل بوبر: «وأنا على تمام الإدراك بأن العلم يخطئ كثيراً»، هذا ما قاله أكبر فلاسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين، فلا حاجة بنا إذن لتأليه هذا الذي يخطئ كثيراً ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

٦- ملأ الشاعر التَّوراتي محمود درويش الأرضَ صُراخاً عن الوطنِ والعروبةِ وأوراقِ الزيتون.. ثم فرَّ فراراً مخزياً من فلسطين وخلَّف هذا كلَّه وراءَه، لم يقو صاحب اليهودية «ريتا» التي كان «الإله» يسكن عينيها العسليتين على ما كان يقوى عليه جيفارا والرِّفاق في أحراش بوليفيا، ولم يكن لدى من قال: «فخذوا وقتكم لكي تقتلوا الله»؛ وقتٌ لكي يقتل رُذال الناس ممن اغتصبوا أرضَه وأذالوا عِرْضَه.

وحفظاً لماء الوجه فقد أصدر ـ آنذاك ـ الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي كان ينتمي إليه درويش بياناً بفصل هذا الثائر الناعم، بعد هروبه المخزي من ساحة النضال، وهذا نصّه عن

كتاب **محمود درويش شاعر الأرض المحتلّة** للرفيق رجاء النقاش، وهو أول كتاب صدر عن هذا الهارب:

«١- بحثتْ سكرتارية منطقة حيفا للحزب الشُّيوعي الإسرائيلي في ترك الشاعر محمود درويش -عضو الحزب الشيوعي الإسرائيلي- البلاد وانتقاله إلى القاهرة، الأمر الذي جرى بدون معرفة الحزب.

٢- إن الحزبَ الشيوعيَّ الإسرائيليَّ ينتقد هذه الخطوة التي قام بها محمود درويش ويعتبرها خطوةً غير صحيحة ومخالفةً لواجباته.

٣- تُقَرِّر سكرتارية منطقة حيفا للحزب الشيوعي الإسرائيلي فصله من الحزب.

٤- إن الحزب الشيوعي الإسرائيلي يناضل ضد سياسة التمييز القومي والاضطهاد البوليسي الذي تقوم به الأوساط الحاكمة في إسرائيل والموجهة ضد المثقفين العرب الديموقراطيين.. هذه السياسة التي قاسى منها محمود درويش بشكل خاص، فلمدة متواصلة فرض عليه الاعتقال المنزلي والإقامة الجبرية في حيفا، كما اعتقل من وقت لآخر بشكل تعسّفي إلى حد عدم الاعتراف بأنه ذو جنسية إسرائيلية.

ولكن هذه السياسة وهذه الإجراءات التعسفية التي تقوم بها

الأوساط الحاكمة لا تبرِّر خطوته هذه، وهي هَجْرُ البلاد وتركُ ساحة النضال من داخل إسرائيل»[1].

قال درويش: وأنا ابنُ عوليس الذي انتظر البريد من الشمال
ناداه بحّار ولكن لم يُسافر
لجمَ المراكب وانتحى أعلى الجبال
يا صخرةً صلى عليها والدي لتصونَ ثائر
أنا لن أبيعَك باللآلئ
أنا لن أُسافر
لن أُسافر
لن أُسافر!

٧- قلتُ لشيخنا عالِم الجزيرة الشيخ حمد الجاسر -وكانت لي معه مجالس- رحمه الله: ما أكثر ما يثني عليكم روكس بن زائد العُزَيْزي، فقال لي الشيخ: أنا لا يعنيني أن يثنيَ عليَّ أو يذمَّني، إنما يثني على المرء آثارُه.

قال الباحث الأردني النصراني المعمَّر روكس بن زائد العُزَيْزي

---

(١) «محمود درويش شاعرٌ موهوبٌ جدّاً، لكنّه غير صادق».
محمد الماغوط، **اغتصاب كان وأخواتها**، حواراتٌ حرّرها خليل صويلح، دار البلد، ٢٠٠٢، ص٧٢.

(١٣٢١-١٤٢٥هـ): «العُزيزي: نسبةً إلى العُزّى، لأن أجدادي كانوا سدنتها»!

مُثلِّثٌ يُعزى للعُزّى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

٨- المتديِّن إنما يتديَّن على طبيعته وخُلُقه، يتديَّن على مزاجه النفسيِّ وإرثه من التجارب السيئة.. ثم هو لا ينفكُّ عن تأثير النشأة، ووطأةِ الإلْف والعادة، وغَلَبة روح العصر.

فإذا رأيتَ متديِّناً يأتي شيئاً ليس من الدِّين الحقِّ فحذارِ أن تحمِّل الدين جريرةَ هذه النفوس، لأن المتديِّن إنما يتديَّن على طبيعتهِ وخُلُقهِ ومزاجهِ النفسيِّ..

٩- قال أمين نخلة: «وقوع الحافرِ على الحافرِ في المعاني يحصل بين لغةٍ وأخرى حصولَه في اللغة الواحدة، ولقد جاء للسيدة «دي سيفينيه» في بعض رسائلها إلى ابنتها وكانت مَصْدورةً قولها ـ وهو من أشهر الرقائق التي تدور في كتب الأدب الفرنسوي ـ: «يا بنتي: إن صدرك يوجعني!»».

وجاء في كتاب **القضاة** هذا الكلام لسهل بن علي، قال: «كنتُ أُلازم ابن نعيم القاضي وأُجالسه وأنا يومئذٍ حديثُ السِّن، وكنت أراه يتَّجر بالزيت، فقلت له: وأنت أيضاً تَتَّجر؟ فضرب بيده على كتفي ثم قال: انتظر حتى تجوع ببطن غيرك! فقلت في نفسي: كيف

يجوع إنسانٌ ببطن غيره؟ فلـمّا ابتليتُ بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم».

١٠- الجاهلُ لا يَرى أبعدَ من وَقْع خَطْوِه، فلا استشراف للمستقبل بلا معرفة.. وللعقّاد كتابٌ كتب ناشرُه على غلافه على لسانِ العقّاد: «ما قلناه.. وما حقَّقتْه الأيام»..

١- قال الأستاذ عبدالله الطريقي وزير البترول السابق ـ رحمه الله ـ (ت ١٤١٨هـ): «إن استمرَّ الوضعُ في العراق على ما هو عليه فسيتقاسمه الأعاجم».

٢- وحدَّثني أحدُ الثِّقات من طلبة العلم قال: حضرتُ في صغري محاضرةً للشيخ الكبير عبدالرحمن الدوسري ـ رحمه الله ـ (ت ١٣٩٩هـ) قال محدِّثي: كان ممّا عَلِق في ذهني من تلك المحاضرة: أن الشيخَ كان يحذِّر من التوجُّهات الشيوعية لدى أكراد العراق.

نعم؛ كاد صاحبُ المعرفة أن يكون عرّافاً..

***

● **عن هتلر والنّازية..** لحميد المطبعي كتيّب لطيف عنوانه **الدكتور جواد علي** أكثره حوارٌ أجراه معه.. ومَن كان طالع كتاب الدكتور جواد

علي المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام علم قيمة هذا الحوار (كلُّ من خطَّ حرفاً في تاريخ العرب قبل الإسلام بعد تأليف هذا الكتاب؛ فهو عيالٌ عليه لا محالة، طبع الكتاب في عشرة مجلدات ضخمة).

في هذا الكتيّب أن جواد علي فَحَص ألفَ كتاب عن موقع الجزيرة وآثارها وما قيل في تواريخها..

قال حميد المطبعي عن جواد علي: «هو ينفي أن يكون (هتلريّاً) في ثلاثينيات أفكاره، بل في أربعينياتها، وهذا ما تحقّق لي أثناء بحثي عن وثائقه السياسية، وأثناء ما سمعت عن قصته في السياسة من خلّانه وزملائه في مقاعد الدراسة الألمانية.

لكن كيف اتهمته عيون الإنجليز في هذه (الهتلرية)؟ والقصة تبدأ كما يرويها شهود تلك المرحلة: من أن العلّامة جواد علي كان في ألمانيا في الثلاثينات يراسل الصحافة العراقية بأحداث المخاض الهتلري، وبتصاعد المدِّ النازي الذي أخذ في تلك المرحلة يستشري كوباءٍ فكري ساحر، وكان على هذا المراسل أن ينقل سحر الوباء بما هو وبما تتطلبه صحافة الثلاثينات.

فحدث أن ذهب إلى مؤتمر (نورنبرك) ليغطي أحداثه، وكانت الصدفة أن يجلس العلّامة جواد علي بالقرب من المقعد المخصّص لهتلر.. خطب الزعماء النازيون وأدلوا بنظريات السياسة والحرب

وأشعلوا بداية الفتيل.. ولما انفضّ المؤتمرون أمسك المؤرخ العراقي بهتلر وأجرى معه حديثاً مطوّلاً في سياسة ألمانيا إزاء الشرق الأوسط، وكتب ما تحدّث به الزعيم النازي في مقالة عنوانها **هتلر كما رأيته** نشرت في جريدة **الطريق** التي كان يصدرها توفيق السمعاني، وهذه هي القصة التي سمعتها من ألسنة الشهود، وقلت للعلّامة جواد علي: وما رأيك في ألسنة الشهود؟ وقلت له: ما رأيك بهذا الماضي بلغة مؤرِّخ؟ وأكد أنه حضر هذا المؤتمر واجتمع بهتلر وسأله أسئلة المرحلة..».

وفي هذا الكتيب:

- **«فما هي إذن فلسفة مؤرخي ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية، وبِتعبير أصح أيام هتلر، وأنت عشت في ألمانيا آنذاك؟**

[أجاب جواد علي]: كانت فلسفتهم تقوم على أساس «بلوت أند بودن» أي «الدم» و «الأرض».. والدم والنسب، أو القومية الألمانية العرقية التي تجمع بين الألمان والأرض، وهي برأيهم الوطن.

فالمواطن في نظرهم من كان من أصل ألماني ومن أرض ألمانيا التي هي فوق الجميع.. وحملهم إفراطهم في الدّم على إعادة تدوين تاريخ العالم، والإيحاء إلى المؤرخين بتدوينه من جديد، وإلغاء كتب التاريخ السابقة لأنها لا تتفق مع نظرية (الدم والأرض).

● **وفي أي اعتبار فلسفي انطلقوا من ذلك؟**

من أن التاريخ القديم والحضارة البشرية يجب أن تبتدئ من الإغريق، ثم الرّومان والشعوب الآرية، وجَعْل حضارات الشرق الأدنى من فضلات تلك الحضارة الآرية.. فحضارة وادي الرافدين وحضارة مصر هي حضارة مصدرها اليونان والآرية، لأن الجنس السامي: مقلِّد، مُحاكٍ، ليس له قابلية على الإنتاج والإبداع!

● **وأنت يا دكتور.. رأيك في هذا التفسير؟**

تفسيرٌ عاطفيٌّ للتاريخ، وهو تفسير قَسْريٌّ كَيْفيٌّ يخالف المنطق المألوف الذي يعطي لكل ذي حقٍّ حقَّه، وهذا ينطبق على الشيوعية أيضاً، فللشيوعية فلسفتها الخاصة في التاريخ، وكتبها الخاصة والعامة تسير على هدي قانونها، في: الديالكتيكية المادية، ومراحل التطور في التاريخ المقررة المثبتة، وترى أن تفاسير التاريخ في البلاد غير الشيوعية هي تفاسير برجوازية تغفل أثر فعل الطبقات!». حميد المطبعي، **الدكتور جواد علي**، ص١٢١، ٤١.

خاطِراتٌ
عن الطّوابيرِ والأمثال..

قال مكسيم غوركي: «جئتُ إلى هذا العالم كي أختلف معه».

ولقائلٍ أن يقول: جئتُ إلى هـذا العـالم لأختلـفَ مـع مكـسيم غوركي، جئتُ إلى هذا العالم كي أُضيف إليه..

تريد الحقَّ بلا مُواربة: ما أكرهه في هذه الحيـاة أكثـر ممـا أُحبّـه، لكنّ كُره أشياء الحياة تختلـف درجاتـه بتفـاوت أثـره الـسيئ عـلى نفسي..

أنا أكره حارس مـسجدنا البنغـاليّ؛ لأنـه كـان يـرشّ إطـارات السيارة بالماء ثم ينصرف ـ رعاه الله ـ ليوهمني بأنه قام بتنظيفها..

مع أني أستحق شيئاً من هذا، لأني لم أعتبر ـ متـى اعتبرنـا ونحـن كلّما أنضجتنا الأيام فضحتنا التجربة! ـ بما قاله كثُّ الشارب والعقـل،

هذا المحيِّر البصيرُ بالنفس الإنسانية والأعراق غوستاف لوبون: «ويتّصف البنغالي بالقِصَر والهُزال والاسمرار والتكرّش، ويهضم ما يلقَّنه، ويبدو البنغالي من الناحية الخُلقية جباناً نذلاً مرائياً»!

لو رأيتم صاحبي لقلتم: إن لوبون قد أُرخي له شيءٌ من سُجُف الغيب فهو يصفه رأي العين، أَوَما كنتُ قلتُ في مقالة سابقة: كاد صاحب المعرفة أن يكون عرّافاً.. (قال لوبون ذلك في كتابه **حضارات الهند**، وإذا أردتَ أن تعرف كيف تكتب الدراسات الحضاريّة فعليك بهذا الكتاب، مع كتابه الآخر **حضارة العرب**، على ما فيهما مما ليس يخفى، فقد كان لوبون سيئ القول في الأديان، وهذا من عجائب العقول التي لم تهتد بنور الوحي).

لكنّ كرهي لصاحبنا لا يداني كرهي الوقوف في الطابور، أنا ما كرهتُ من الحياة شيئاً ما كرهت الوقوف في هذه الطوابير: طابور الصباح، طابور الكشف الطبي، طابور استلام الرواتب، طابور المراجعات الحكومية، طابور التسوّق، طابور فرانكو الخامس...

ومع احترامي للغربيّ الذي قال: «إن طريقةَ الوقوف في الطابور هي خيرُ دليلٍ على درجة رقيٍّ مجتمعٍ من المجتمعات»؛ فلن أقف منضبطاً في طابور إن وَقفت، وليقل عنّي مقوّم الحضارات هذا ما يشاء.

ثم إن العرب كانت تعرف **الصَّفَّ** لا الطابور، فمن أين جاءنا هذا الـذُّلّ حتـى يقـف الرجـل ووجهـه في مـؤخِّرة مـن يتقدمـه، ومؤخِّرته في وجه من يقف خَلْفه؟

هل يقابل الغربيُّ عبادةَ الصَّفِّ في المسجد عند المسلمين؛ بعبادة الطابور؟

(قال محمود السعدني: إذا كان في مِلّة الإسلامِ لا فـضل لعـربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتقوى؛ ففي مِلّة الإنجليـز لا فـضل لعـربيٍّ عـلى عجميٍّ إلا بالدَّور!).

هل للأسبقية الحضارية واستعلاءِ التقدّم أثـرٌ عـلى الفـرق بـين ثقافة الصَّفِّ وفلسفة الطابور؟

هل أنا مصابٌ ـ لا سمح الله ـ بداء التاريخ؟

ليتك تقلّب هذه الكلمة لنديم نجدي؛ لتخرّج عليها ما أُحسّه من هذا الهبوط المفاجئ الذي يصيبني بالدوار الحضاري حين أقف في طـابور: «للـشرقيين غـرورُ أسـبقيتهم الحـضارية في التـاريخ، وللغربيين استعلاءُ تقدّمهم الحضاريّ على التاريخ».

عندما زرتُ رومانيا ـ نسيتُ أن أخبرك بأني أكره كـذلك مـن يتحدّث عن أسفاره على أنها مظهرٌ من مظاهر الثقافة ـ توقّـف بنـا سائق الأجرة عند أحد المخابز، لم أكن رأيتُ عن قربٍ الأثرَ الـذي

تخلّفه الشيوعية على هذه الشعوب البائسة؛ حتى رأيتُ أطولَ طابورٍ معوَجٍّ يقف عند أصغر نافذة مخبز..

كانت رومانيا قد تحرّرتْ غير بعيد من أسر النظام الشيوعيّ، لكن الطبقة الكادحة «البروليتاريا» (هل كتبتُها على الصحيح؟ كان لنا أخٌ في الله يسمي «البروتستانت»: «البروستاتا»! جعل كالْفِن ولوثر من أطباء المسالك البولية! ما علينا..).

هذه الطبقة الكادحة هي التي تدفع من الثمن في مثل هذه التحوّلات الحادّة ضعف ما كانت تدفعه من قبل.

ذلك المنظر الغريب كان من بقايا عهد الشيوعية النَّكِد، فما أصدق ما قاله بعض الساخرين حين عرّف الشيوعية بأنها: «النظام الذي يُنتج طوابير يتقدم فيها المرء في السنّ بعضَ الشيء قبل أن يحصل على حاجته»!

لكن إن تحرَّينا الدِّقّة؛ في البلدان الشيوعية أو في غيرها: **حين لا تستقيم الحكوماتُ تَعوَجُّ الطوابير**، وحين تَعوَجُّ الطوابير تنحني الجباه للحياة.. كرهتُ أن أنحنيَ للحياة؛ فهل فهمتَ عنّي: لِمَ لَمْ أكره شيئاً من مكاره الحياة ما كرهتُ الوقوف في هذه الطوابير؟

على أنه إن كان ولابد من انحناءةٍ فانحناءة من قال:

معلَّقٌ أنا على مشانق الصباح

وجبهتي بالموت محنيّه

لأنني لم أَحنِها حيّه..

ارتعت من طول ذلك الطابور وأنا من قد عرفتَ كرهاً للطـوابير، فسألتُ سائق الأجرة:

هل سنقف مع هؤلاء التعساء؟

فأجابني: يمكنك أن تدفع ثلاثةَ أضعاف قيمة الخبـز فتحـصل عليه دون الوقوف.

دفعتُ المبلغ مستبشراً، وانصرفنا بخبزنا راشدين..

كان ابن القيِّم قال: «ما ابيَضَّ رغيفُهم حتى اسودَّ فقيرُهم».

كان سائقُ الأجرة على شيءٍ من الودّ، فأخذت أثنـاء التفـاوض للسماح لنا بالحصول على الخبـز أتحـدّثُ معـه حـديثاً بالإشـارة مـا عُدت أذكره، وإنما أذكـر أنـه أثنـاء حديثـه أشـار إلى أُصـبعين مـن أصابعه، ثم نفى أن يكون أحدُهما يشبه الآخر؛ فذُهلت..

هل يريد سائقُ الأجرة هذا الرومـانيُّ الخـارجُ لتـوِّه مـن سـعير الشيوعية أن يقول لي أنا الوهابي القادم من صميم نجد: «أصابعك ما هيب سوا»؟!

ما أشدّ تبايننا واتفاقنا..

أدركتُ فيما بعدُ بقَدرٍ من التأمّل والقراءة في فلسفة الأمثال:

١ ـ أن ما يميز الثقافاتِ بعضها عن بعض هو الاختلاف بينها، وأن هذا الجنس الأدبي «الأمثال» يعود فيَحْطِم هذا المعنى؛ لأن ثمّةَ تشابهاً مدهشاً بين أمثال الشعوب على الرغم من شدّة التباين بين هذه الثقافات المنتجة.. (لا تنس الطُّرْفة أيضاً، في التراث اليهوديّ شخصية ساخرة (هيرشل أوستروبولير) يروون عنها من الطرائف قريباً مما نرويه عن جحا).

٢ ـ أن هذا التشابه المحيِّر أَوَّلَ وَهْلة إنما يرجع عند تحليله إلى عوامل عدة؛ من أهمها:

أ ـ التأثيرُ الحضاريُّ بسبب حركة التجارة وهجرة الشعوب. (يذكِّرني هذا العامل بما كانوا يقولونه لنا عن عوامل سقوط الدولة العثمانية في كتب التاريخ الهزيلة التي كنا ندرسها).

ب ـ التشابهُ في التجربة الإنسانية الذي يولّد المعانيَ نفسها حين تتماثل المؤثرات، ففي غينيا ـ بيساو وفي بلدتي شقراء؛ لا أحد يضحك من شدّة الألم..

يكثُر جريان المثل في كل مجتمعٍ على أَلْسنة العامة من الناس، وكلّما ارتفعت الطبقة الاجتماعية ضَعُفَ دوران المثل في كلامها، لأن المثل موروثٌ تقليديٌّ تتناقله الثقافة الشفهية الشعبية، وليس تتأكد هوية النُّخْبة إلا بالقَدْر الذي تبتعد فيه عن هوية العامة.

لأنّ الفقرَ تُربَةُ الرّذيلة؛ ولأنّ الفقرَ يشوِّه القيم في نفس الفقير، ويورثه ميزاناً غيرَ صالحٍ يزن به العادات والأخلاق؛ فإن الفقير يظن أنَّ الأغنياء وأصحابَ البيوتات لم يصبحوا كذلك إلا لِقيَمٍ لا يملكها، فإذا انتقل إلى طبقة أعلى من طبقته؛ فإنه يحاول أن يقترب من أخلاق هذه الطبقة وعاداتها..

ولأنّ أكثر الطبقة الوسطى في المجتمع السعوديّ قد طرأتْ عليها الثروة بسبب الطَّفْرةِ العقاريّة وجنونِ الأسهم؛ فإنها تمزّقت هويتها بسبب هذا النمو الماديّ المباغت الذي لم يصحبه نموٌّ مُوازٍ لأخلاقٍ وعاداتٍ اكتسبها أهل البيوتات العريقة اكتساباً طبيعياً على مرّ الزمن (ذكر العلّامة محمد كرد علي في بعض كتبه أنه رأى وزيراً جاء من الطبقة الدنيا قد اتَّسخت أظافره).

لهذا التشوّه الذي أصاب هذه الأنفس التي ما بارحت الفقر إلا البارحة؛ نجد أنها تدير في كلامها مفرداتٍ لا تستخدمها النّخبة؛ لأنها لا تستطيع أن تستغني عنها سريعاً في خطابها، لكنها - لأنه أيسر عليها - تتكلّفُ نسيانَ المثل ومحوَه من ذاكرتها حتى تَلْحق بالطبقة الأعلى، فلا يكاد المثل يجري على لسانها كما كانت تفعل من قبل.

قال الدكتور صلاح فضل في كتابه **شفرات النصّ** في نقد بعض الشعراء: «هو ذو بعد كوني أنطولوجي في مرحلته الأولى، وله طابع

معرفيّ إبستمولوجي في الثانية، ويتمتع بأساس أكسيولوجي في الثالثة، وله سمة كوزمولوجية في الرابعة، وقوة ترنسندنتالية في الخامسة، وصفات فينومينولوجية في السادسة، وأيديلوجية في السابعة».

صدق من قال: حَسْبُك من شَرٍّ سماعُه.. إن استطعت أن تعيد هذه الوصفة الطبية في نَفَس واحدٍ دون أن تصاب بحساسية في الجيوب الأنفية؛ فلك عندي عشر إبستمولوجيات من الذهب الخالص، مع علبة كوزمولوجي دهان موضعي عند اللزوم!

حسبكم الله ماذا فعلتم بعقولنا يا نُقّاد الجنونِ المعقول؟ زعمتْ أقلامُكم أنها استيقظت: «من عادة النّوم على الأمجاد»؛ ثم ماذا؟ وقفتْ ذليلةً تتثاءب ـ بلباس النّوم ـ على باب المنهج الغربيّ تتكفّفه نموذجه المعرفي..

دع عنك البنيوية الجامدة والتفكيكية السيّالة؛ وخذ عن هذا النَّجْديِّ الطيِّب: لو سئلتُ عن أبرز سمةٍ تَسِم مُحْدَث النَّعْمة لقلت: إنها ابتداءُ غيابِ المثل عن حديثه، والحمد لله.

أُخبرك عن نفسي: سَجّادة مجلسي ليست بيضاء.. (كتب أحدهم: يميلُ أصحاب الدّخل القليل إلى الألوان الداكنة لا عن مزاجٍ سوداويّ، لكن لأن الألوان الداكنة لا تتسخ سريعاً!).

ولا يلوح لي في الوقت الحاضر بوادر انتقال إلى الطبقة الفاتحة،

لذا فإني مولَعٌ بالأمثال، قرأتُ من كتبها، واستظهرتُ قدراً لا بأس به منها، لكنـي أجـدني عـاجزاً ـ ليـستْ هـذه أولى خَيبـاتي ـ عـن استدعاء المثل في أثناء الكلام، فلا أكاد أحسن التمثُّل بهذه الأمثـال التي أحفظها، ثم إني أجد بعـضَ مـن هـو أقـلُّ منـي موروثـاً مـن الأمثال تجري الأمثال على لسانه بلا عُسْر.

لذا صرتُ أعتقد أن التمثُّل بالمثل شيءٌ آخر غـير حفظـه، فهـؤلاء الذين نراهم يحسنون إيراد المثـل في مواقعـه مـن الكـلام يملكـون موهبةً أُخرى غير موهبة الحفظ، ولعلّ هذا هو السبب في أنك تجـد أنّ كثيراً من الأمثال التي يقولونها ليـست مجهولـةً لـديك، لكنـك لا تُحسِن أن تستدعيَها على البديهة في مواقع كلامك كما يفعلون.

ضمّتْني عدّة مجالس مع الأستاذ عبد الكريم الجهـيمان؛ وكنـت أسمع فيها بعدُ إحدى قريباتي يجري المثل على لسانها بأيسرَ مما يجري على لسانه.

فالتمثُّل بالمثل إذن موهبة ليست لكلِّ أحد، ولا تَقِلُّ في نظـري عن موهبة حسن إيراد القصص عند بعض المتحدّثين.

وإلى خاطراتٍ أُخرى نلتقط فيها معاً من صـور الحيـاة ومعـاني الأنفس ما عساه يثري ويمتع ويفيـد، حفظـك الله ـ أيـديولوجيّاً ـ من الطبقة الفاتحة أو الداكنة أيّاً كنت..

الهوامش:

خالفتُ السّائد ـ ليس كلُّ ما خالف السائد بمُسْتَرذل ـ فلم أضع علامة الهامش في أصل المقالة؛ خوفَ أن تقطع على القارئ متعةَ الاسترسال، وها هي هنا على ترتيب ما ورد في المقالة:

١ـ «كلّما أنضجتنا الأيام فضحتنا التجربة» أظن أن لأحد الأدباء كلمةً على هذا النحو: «كلّما أنضجتنا الحكمة فضحتنا التجربة».. فتصرّفتُ فيها على ما تراه بما أَراه أليقَ بها.

٢ـ كلمة نديم نجدي: «للشرقيين غرور أسبقيّتهم..» وردت في كتابه **أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند: إدوارد سعيد ـ حسن حنفي ـ عبد الله العروي**، ص ١٧.

٣ ـ أفدتُ «قليلاً» مما ذكرتُه عن فلسفة الأمثال من كتاب الباحثة الهولندية مينيكه شيبر: **إياك والزّواج من كبيرة القَدَمَيْن: النساء في أمثال الشعوب**، صدر مترجماً عن دار الشروق، ٢٠٠٨م.

٤ـ عن الفكاهة عند اليهود: **الفكاهة اليهودية** لجوزف كلازمن، ترجمة محمد محمود، ١٤٣٠هـ.

٥ـ نقلتُ نصَّ صلاح فضل عن كتاب **تساعية نقدية** لماهر فريد، ص ٢٩٢. وهو تمثّل بالقول: «حَسْبُكَ من شَرٍّ سماعُه».

٦ـ الأستاذ عبدالكريم الجهيمان هو صاحب الكتاب المعروف

الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية.

٧ـ وأخيراً لا تظنّ بي الحقد على هذا البنغالي المسكين سامحه الله.. إنما أردتُ أن أتوصَّل به إلى ما قصدتُ من التطريق للمعرفة والكلام.

***

• **عن البنغال**.. بعد أن كتبتُ هذه المقالة فُهم بعض ما جاء فيها على غير وجهه؛ فكان هذا التوضيح:

لستُ أرى أن الجنس البنغالي كلّه على ما ذكره لوبون، وما كان لي أن أرى هذا الرأي الفائل ونحن أحوج ما نكون إلى جامعة إسلامية تجمعنا في هذه الفرقة التي استباحنا بها العدوّ.. وإنما كنت أقرّر رأياً معرفياً ـ لا زلت أؤمن به ـ وهو: **أن للأعراق أثراً لازباً على الأخلاق**.. ومع أني من أهل نجد؛ فإن هذا لم يمنعني من أن أكتب عنهم قبل هذه المقالة: «وإن أخلاق أهل نجد قد بلغت من السوء مبلغاً تحتاج معه ـ لو علمتَ ـ إلى نبيٍّ ليصلحها».

ثم إني ـ في هذه المقالة نفسها ـ كتبتُ تحليلاً موجِعاً للطبقة الوسطى من المجتمع السعودي.. فأين من تكلَّف صبغ مقالتي بهذا اللون العنصريّ الكريه؛ عما كتبتُه عن أهلي ودمي في سطور تربو بكثير على ما

كتبتُه عن الشعب البنغالي؟

هو التجريدُ المعرفيُّ إذن هذا الذي أريده، تجريدٌ معرفيٌّ يسمو بالمدارك ويبسط التصوّر.

●● **عن غوستاف لوبون**.. قال الأستاذ محمد علي الطاهر (ت ١٩٧٤م) – هو مناضل وصحفي ومؤلِّف لا يكاد أحد يذكر اسمه اليوم، مع أن كتبه تعدُّ وثائقَ عاليةً لأحداث زمانها، ولاسيما غاشية الاستعمار الإنجليزي، والقضية الفلسطينية، والحالة العلمية والسياسية في مصر ـ قال عن غوستاف لوبون في نصٍّ نادر: «في سنة ١٩٤٥ قام العالم الفلسطيني الأستاذ عادل زعيتر بك ـ الذي ترجم جميع كتب غوستاف لوبون تقريباً ـ فنقل **حضارة العرب** إلى اللغة العربية بلغةٍ سلسة عالية، وأسلوبٍ رفيع ممتاز، وقد طبعته مطبعة السيد محمد عيسى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٤٦، ثم طبعته أخرى سنة ١٩٤٨، وسيعاد طبعه مراراً لأنه خير كتاب أَلَّفه عالم أجنبي كبير عن العرب فأنصفهم ووافاهم حقَّهم.

وبمناسبة الحديث عن الدكتور غوستاف لوبون أذكر هنا ما سمعتُه من الأستاذ عادل زعيتر: وهو أنه قابل الدكتور لوبون سنة ١٩٢٢ في باريس واستأذنه بترجمة الكتاب فأذن له، وأن لوبون كان يتصور أن ملوك العرب والمسلمين سيحتفلون بكتابه، وأن أحدهم مثلاً سيأمر

بإرسال كتابِ شُكرٍ إليه، أو يأمر بترجمته إلى اللغة العربية على الأقلّ.. ولكن أمله خاب وهذا مؤسف حقاً، مع أن الواجب في ذلك الحين كان يقضي بالشكر وبالهدايا أيضاً.

وفي سنة ١٩٢٥ نوى الأستاذ زعيتر أن يترجم **حضارة العرب** واستعدّ الأمير شكيب أرسلان لمشاركة الأستاذ زعيتر في مشروعه فيتولى وضع تعليقاتٍ عليه، كما استعدّ الأستاذ إلياس أنطون إلياس لطبع الكتاب والتعليقات، وكنت أنا الواسطة بين الثلاثة، وكتب لي المرحوم شكيب أرسلان أنه قابل الدكتور غوستاف لوبون لهذا الغرض، فطلب منه أن تهديه الأُمة العربية عباءةً وخنجراً مذهَّباً، فكتب لي الأمير بأن أسعى في تدبير هذه المسألة، ولكن المرحوم محمد بك مسعود رجاني أن أتوسط لدى زعيتر وشكيب وإلياس بترك المشروع ما دام أنه قد شرع فيه فعلاً، فتركوه له ولكنه لم ينفّذ عزمه، فنفّذه زعيتر بك والسيد محمد البابي الحلبي بعد وفاة لوبون ومسعود وشكيب..». **ظلام السجن، مذكّرات ومفكّرات**، ص١٣٣.

عنوان الشَّرَف الوافي..
وإبداع الحضارة الإسلامية

حفَل تراثنا العلميُّ الذي خلّفه الأجداد بضربٍ غريبٍ من التآليف، إنْ في صنعة الكتاب أو في التصرّف بمادته، تفتّقت عنه أذهان القوم فافتنّوا فيه ما شاءت لهم عبقرياتهم الفذّة، لقد تجاوزوا به المادةَ العلمية وقيمتَها فخرج إلى شيءٍ من هذا الذي يسمّونه الترفَ الفكري، نعم؛ قد يعيبه من أدرك قيمة الزمن في حياة هذا الإنسان، إلا أنه لابد واقف وقفة الدَّهِش المتحيِّر من نبوغ هذه العقول وإبداعها.

فأين من قُوانا وملكاتنا تأليف تفسير لكتاب الله بحروفٍ مهملة ليس فيها حرف منقوط؟ كما فعل أبو الفضل فيض الله الأكبر آبادي الهندي (ت ١٠٠٤هـ) في كتابه **سواطع الإلهام** المطبوع

في الهند سنة ١٣٠٦هـ [١]، ومحمود الحمزاوي [٢] الدمشقي (ت ١٣٠٥هـ) في تفسيره المسمى **درّ الأسرار**.

وقد أخبرني شيخنا العلّامة بكر أبو زيد أنه اطّلع على مجلد مطبوع لأحد العلماء الهنود؛ فسّر به القرآن بحروف منقوطة ليس فيها حرفٌ مهمل [٣]!

ذكر العلّامة الكتاني في **فهرس الفهارس** ص٥٦١: أن لعبدالرؤوف المناوي كتاباً: «في الأحاديث القصار، جمع فيه عشرة آلاف حديث، في كل ورقة مئة، في كل وجه خمسون، وفي كل سطر حديثان، كل حديث في نصف سطر، يقرأ طرداً وعكساً سماه **كنز الحقائق في حديث الخلائق**..» وهو مطبوع لكن بعض العلماء أنكر أن يكون مثاله على ما ذكره الكتاني؛ إلا أن يكون لمؤلِّفه طريقة لم تفهم عنه.

ومن هذا ـ وإن لم يكن من التصنيف ـ ما أتوا به من نثر ونظم عجيب الوضع، كالذي فعله الحريري في مقاماته من حالٍ وعاطِلٍ،

---

(١) وله أيضاً **موارد الكلم** ما زال مخطوطاً وهو رسالة في الأخلاق غير منقوطة.. **الأعلام** ٥/ ١٦٨.

(٢) مطبوع، وجاء في ترجمته من **تاريخ علماء دمشق** ١/ ٥٤: «كتب الفاتحة على حبة أرز..».

(٣) لأحد المعاصرين مختصر في السيرة بالحروف المهملة.

وما يقرأ طرداً وعكساً، وما ذُكر عن بديع الزمان الهمذاني من أنه كان يكتب ما اقترح عليه فيبدأ بآخر سطر منه إلى الأول ويخرجه كأحسن شيءٍ وأملحه. **يتيمة الدّهر** ٤/ ٢٥٦.

وقد أورد صلاح الدين الصفدي في كتابه **ألحان السواجع** بيتين مدحه بهما أبو المظفر العقيلي وُزِّعا على جدول فيقرآن بطرق **عدة**[1].

وليحيى الصرصري قصيدةٌ في كلّ بيت منها حروف الهجاء كلّها أولها: «أبتْ غير ثَجِّ الدَّمع مقلةُ ذي حزن». **الأعلام** ٨/ ١٧٧.

وقد كان هذا الضَّرْبُ الغريب من الإبداع يستهويني، فاجتمع لديَّ منه قدر لا بأس به حقه أن يفرد في كتاب؛ ليعلم ناشئة هذا الجيل ـ العاقّ تراثه ـ أيّ شأو عظيم بلغه أجدادنا في كلّ ميدان طرقوه؛ وأن من العقوق أن نجهل ـ فيما نجهله ـ أن أجدادنا أول من عرف «الشفرة» وهي الكتابة السرية: «وقد كتبوا بالشفرة من أيام المأمون إلى الحروب الصليبية، فأخذه الإفرنج عن المسلمين، ولجهلنا بمعارف أهلنا أخذناه باسمه الجديد عن الإفرنج وهو «الشفرة» التي نقلها الإفرنج عن كلمة صفر العربية، واستعملوها بمعنى الأرقام لأنهم

---

(١) ألحان السواجع بين البادي والمراجع تحقيق محمد عبدالحميد سالم ٢/ ٤٥٣، وقد ردّ عليه الصفدي ببيتين نظير بيتيه ٢/ ٤٥٦.

استخدموا الأرقام بدلاً من الحروف في الكتابة السريّة، ثم استُعمل لفظ (الجفر) بدل الشفر، لتقارب المخرجين لأن الجفر كان يستعمل في الألغاز.

ونظراً لأن هذا العلم كان خفيّاً خاصّاً بأسرار الحكومات ظل مصوناً، ولذلك جهل كثيرٌ من الناس معنى هذه الكلمة، حتى إن كتب اللغة لا تشير إليها، ومما يذكر أن المكتبة الزكية كانت تحتوي على مجموعة كاملة للمؤلفات العربية الخاصة بالكتابات السرية وكيفية استخراجها عند العرب»[1].

وأما ما كان من إبداع المسلمين في التأليف بعامة فانظر إلى الكلام النفيس الذي ذكره الكتاني في كتابه الحافل **التراتيب الإدارية** ٢/ ١٨٢، فقد أورد فيه ما لا تجده مجموعاً في كتاب.

عنوان الشرف الوافي

ومن هذا الإبداع؛ بل ومن أعجبه حتى ليكاد يعجز عنه غالب الطباع البشرية كما قال الشوكاني في **البدر الطالع** ص١٥٩؛ كتاب **عنوان الشَّرَف الوافي في علم الفقه والعَروض والتاريخ والنحو**

(١) أنور الجندي، أحمد زكي باشا، ص ١٢٩ «بتصرّف».

والقوافي، لشرف الدين إسماعيل بن أبي بكر بن عبدالله الشاوري الشرجي اليماني المعروف بابن المقرئ.

ولد ابن المقرئ سنة ٧٥٤هـ في أبيات حسين في منطقة الشرجة من سواحل اليمن، ثم هاجر إلى الأبواب الأشرفية عام ٧٨٢هـ في حداثة السن بعد أن أخذ شيئاً من العلم في الشرع والأدب، ثم أقبل على العلم فقرأ عدة فنون وبرز فيها جميعها وفاق أهل عصره وطار صيته وصار إماماً في الفقه والعربية، قال الخزرجي: «وقد قرأ عليَّ ديوان المتنبي فاستفدت بفهمه وذكائه أكثر مما استفاد منّي..»(١).

وما زال يتدرّج ويترقّى حتى أدناه الملك الأشرف إسماعيل، ثم أصبح مكرَّماً عند ولده من بعده، إلى أن توفاه الله سنة ٨٣٧هـ رحمه الله تعالى.

كان ابن المقرئ يطمع في أن يتولى قضاء الأقضية بعد وفاة المجد الفيروزآبادي فلم يتمّ له، بل كان يرجوه في حياة المجد ويتحايل عليه، بحيث عمل المجد للسلطان الأشرف كتاباً أول كلِّ سطر منه

---

(١) وهم محقق **عنوان الشرف** ص٨؛ إذ ظنّ أن هذه الجملة من كلام السخاوي، فكيف يقرأ ابن المقرئ على السخاوي وقد كان عمره عند وفاة ابن المقرئ ست سنين؟ ولد السخاوي سنة ٨٣١هـ.

أَلِفٌ فاستعظمه السلطان، فعمل ابن المقرئ **عنوان الشَّرَف الوافي** فبهر به علماء عصره، قال السخاوي: «لم يتم في حياة الأشرف فقدّمه لولده الناصر فوقع عنده بل عند سائر علماء عصره ببلده وغيرها موقعاً عظيماً وأعجبوا به». **الضوء اللامع** ٢/ ٢٩٢، **البدر الطالع**، ص١٥٨، مقدّمة **عنوان الشرف** للأنصاري، **هِجر العلم ومعاقله في اليمن** للقاضي الأكوع ١/ ٣٨.

ألّف ابنُ المقرئ كتابه على غير مثالٍ سابق، حيث سلك: «هذه الطريق التي أخذ منها البكارة، وشرع لأهل العلم والفضل منهاجاً يقتفون مناره»، جمع فيه خمسة علوم، إذا قرئ على سياق السطور فهو علم الفقه، وإذا قرئ على أول سطر منه قراءةً عموديةً كان علم العروض، وإذا قرئ ثاني سطر عمودي منه كان علم التاريخ، وإذا قرئ ثالث سطر عمودي منه فهو علم النحو، وإذا قرئ رابع سطر عمودي منه كان علم القوافي!

فجعل ثلاثة علوم منه تتقاطع فلا يختلُّ معنى كلِّ علم بهذا التقاطع، وهي: الفقه، والتاريخ، والنحو، وأما علم العروض فقد بدأ بكلّ سطر منه بالحرف الذي يبدأ به السطر في علم الفقه، والتزم في علم القوافي بأن يبدأ كل سطر منه بالحرف الذي ينتهي به السطر في علم الفقه.

لقد شحذ هذا التأليفُ أذهانَ العلماء بعد ابن المقرئ، فذكر الحنبلي في تاريخه **درّ الحبب** في ترجمة أحمد الشغري (ت ٨٨١هـ) أنه وضع تأليفاً جمع فيه خمسة علوم على مثال **عنوان الشرف**، وذكر الحاج[1] خليفة في **كشف الظنون** ٢/ ١١٧٦: بأن ابن كميل الدّمياطي المتوفى سنة ٨٧٨هـ صنف كتاباً على نحو **عنوان الشرف** بزيادة علمين.. مقدمة **عنوان الشرف**.

وقد ذكر القاضي الأكوع في **هجر العلم** ١/ ٣٩: أن هذا النوع من التأليف قد اشتهر في اليمن فألّف ابن المظفر **البرهان الكافي** في عشرين علماً، وألف القاضي السانّة **الإعلام بنعم الله الواهب الكريم**.. وألف البجلي **برهان البرهان**.

قال السيوطي في **بغية الوعاة** ١/ ٤٤٤ في ترجمة ابن المقرئ: «وقد عملتُ كتاباً على هذا النحوَ في كرّاسة في يومٍ واحدٍ وأنا بمكة المشرّفة، وسميته **النفحة المسكية والتحفة المكية**..»[2].

هذا؛ ولم يكن **عنوان الشرف** هو كلَّ مآثرِ ابن المقرئ، فقد كان

---

(١) الحاجّ وليس حاجي، نبّه عليه العلامة الطناحي ـ رحمه الله ـ في المدخل.

(٢) **التحدّث بنعمة الله**، ص١١٦. من رسالة السيوطي: **النفحة المسكية** عدة مخطوطات بالجزائر وفينّا والأسكوريال.. أحمد الشرقاوي، **مكتبة الجلال السيوطي**، ص٣٧٠.

له **إرشاد الغاوي** لم يأت فيه باسم معرَّف بأل التعريف، وله القصيدة المخلَّعة التي تقرأ على وجوهٍ كثيرةٍ ذكر الخزرجي أنها تقرأ على ألوف الألوف من الوجوه. **هجر العلم** ١/ ٣٩.

طُبع كتاب ابن المقرئ **عنوان الشرف** طبعاتٍ عديدة، منذ عهد الطباعة الحجرية إلى يومنا هذا، وأمثل نشراته ـ وهي المتداولة اليوم وعليها الإحالات هنا ـ النشرة التي حققها الشيخ عبدالله الأنصاري.. فرحم الله ابن المقرئ ما كان أحذقه وأشد ذكاءه، ولله هذه النفس الإنسانية، فقد جاء عنه في **الضوء اللامع** ٢/ ٢٩٥: «كان غايةً في النسيان، قيل إنه لا يذكر ما كان في أول يومه، ومن أعجب ما يحكى في نسيانه: أنه نسي مرّة ألف دينار بزنبيل ثم وقع عليه بعد مدة اتفاقاً فتذكّره، وحاله لا يقتضي نسيان دون هذا القَدر فضلاً عنه..».

• **قلتُ**: قد كنتُ نشرتُ هذه المقالة قبل عدّة سنوات، ولا أرضى اليوم عن كثيرٍ من مادّتها ومعناها؛ فهو من التّافه الذي لا قيمة له..

رهبةُ الموت وجَلال الأحياء*

ليس كرهبة الموت رهبةٌ تلجم الأقـلام، فكيـف بهـا إن كانـت مقرونةً بجَلال الأحياء.. وما بي في هذه الساعة إلى الكتابة وبعـضي يبكي بعضَه، ولكن للفقيد حقّ، وعليّ واجب، وللتاريخ حساب..

لقد درجتُ من عُشِّ الشيخ واستصبحتُ بزيته، وكان لهذا كلّه قـصةٌ يحـول دمـع القلـم دون رؤيـة تفاصـيلها الآن.. ومـا جئـتُ لأتحدث عن نفسي من خَلَل الحديث عنه رحمه الله، كلا.. وما أكثـر ما تُتخذ أمثالُ هذه المواقف ذريعةً للحديث عن الـنفس مـن خلـل الحديث عن العظماء..

* كتبتُ هذه المقالة يوم وفاة شيخي العلاّمة حمد الجاسر رحمه الله، ونُـشرت مـن الغد في جريدة الرياض، عدد (١١٧٧١)، في ١٧/ ٦/ ١٤٢١هـ.

ولكن مهلاً، أتدري أيّ خبر بلغ؟ لقد مات حمد الجاسر، مات.. وَهَوتْ ثلاثٌ وتسعون سنةً ذاهبةً في سماء العلم مناراً يستهدي به كلُّ طالب علم.. هوتْ ثلاث وتسعون سنة تحكي كلُّ سنة منها قصة قروي فقير عليل استطاع أن يكون تاريخاً حافلاً تؤرخ الأجيال الناهضة به، فهذا ولد في زمن حمد الجاسر، وهذا وهذا.. وإن التاريخ ليصغر ويصغر عند أقدام العظماء حتى يكون العظيم تاريخاً يؤرخ التاريخ به..

مات حمد الجاسر، مات.. وَهَوَتْ ثلاثٌ وتسعون سنةً ما أهرقها صاحبها على عتبات شهرة، ولا في طِلاب بهرج زائف مما يغري بهذه الأنفس الضعيفة.. ثلاث وتسعون سنة كانت خالصة كلها للعلم، فالأنفس الكبيرة ليس يغريها في هذه الحياة إلا ما هو كبير، وليس ثمة ما هو أكبر من معنى العلم في أنفس الكبار.. لستُ أنسى ما حييت مرة سألته عن هذا المسلك الوعر الذي اختطه لنفسه: مواضع وأنساب ورِحْلات ولغة ومخطوطات.. فاحتدَّ ـ رحمه الله ـ وكان من معنى كلامه: السّهل كل أحد يستطيعه، ولكن الصعب هو الذي يحتاج إلى أن ينذر الإنسان له نفسه، وهنا تكون الإرادة..

مات حمد الجاسر، مات.. أحقّاً مات؟ أحقّاً أن لست دالفاً إلى تلك الصالة التي تكدّستْ على مائدتها أكوامُ الكتب جاءته من

مشرق الدنيا ومغربها، أحقّاً أن لست مقترباً من الشيخ وهو مكبٌّ تحت نور المصباح الأصفر على تصحيح تجارب العرب.. أحقّاً أن لستُ رافعاً صوتي قرب أذنيه: فلان، ثم ألثم ذاك الجبين الوضيء بنور العلم فيبتعد ما استطاع قائلاً: لا تُقبّل الرأس، يكفيني منك السلام.. لقد قلت له مرة: لو كُنتَ ذا مال ما قَبّلتُ رأسك، أنا أُقبِّل فيك العلم، فابتسم فقلت: «أنا لا أختارُ تقبيلَ يدٍ»... فقال: من خَمَّسَها؟

عِلم في كلّ شيءٍ، لكأني به ـ رحمه الله ـ كان يسأل عن كتبه أواخر ساعاته..

مات حمد الجاسر، مات... ليتني كنت أعلم أن ذاك اللقاء كان آخر لقاء؛ إذن ما خرجت من عندك، ليتني قبّلتُ رأسك فوق ما قبّلته، ليتني حدّقتُ إليك فوق ما حدّقت، ليتني استفدتُ منك فوق ما استفدت.. ولله كم مسكين من طلبة العلم سيبكي ندماً على أنه ما التقى حمد الجاسر ولا جالسه ولا شافهه.

إن أمثال الشيخ قليل في أمثال أبناء هذا الزمان، ولسوف تتعب العيون وهي تتقلب في الوجوه دون أن ترى مثلك يا شيخ..

أودّ أن أكتب وأكتب.. أودّ أن أروي قصة سِفْر خالد من أسفار هذه النفوس الكبيرة.. ولكن القلم لا يطاوعني، لعله يأبى

أن يرثيَ مَن علّمه شرفَ القلم، فكيف أرثيك بك يا شيخ؟

آه، لم أكن أدري أنك كنت تستشرف هذه النهاية القريبة حين قلت لي في آخر لقاء: أحضر لي معك المرّة القادمة الكتاب الفلانّي.. أحضره ولعلك لا تدركني!

ما أوجع الحقيقة حين تكون حاضرةً تخنق كلَّ خيال كان يفزع إليه هذا الإنسان الضعيف.

لم أكن أدري وأنت تقلّب دفتر الهاتف وتقول لي: هذا الدفتر يخيفني، فما فتحتُ على صفحة إلا وجدت رقم صديق متوفّى.. لم أكن أدري أني سأقلّب بعدك ألفَ صفحة وصفحة من هذا الذي كتبتَ ثم ألتفت يمنةً ويسرةً فلا أرى حمد الجاسر..

مات حمد الجاسر.. مات، هي الحياة ما خلقنا فيها إلّا لنموت.. ولكن ما بين المولد والوفاة هنا حياة اسمها حمد الجاسر؛ فهل وعينا بعده معنى الحياة؟

أُعلِّمكم بشعري الشِّعر لكن
تُعلِّمكم حياتي ما الحياة..

من مجالس عالم الجزيرة
الشيخ حمد الجاسر

لو لم أسكن سنة ١٤١٥هـ بجوار منزل العلّامة حمد الجاسر رحمه الله؛ لكنتُ الساعة شيئاً آخر على غير ما أنا عليه، لو لم أسكن بجوار منزله لكنتُ شيئاً آخر في جميع شؤون حياتي.. «وهكذا القَدَر كثيراً ما يتأرجح بنا على خيطٍ رقيقٍ فاصل..». هوجو

لهذا الاسم «حمد الجاسر» وقع يبتدئ في نفس سامعه بالجَلال، ثم لا يلبث حتى ينتهي به إليه.. ولأن محلَّ الجاسر من نفسي كمَحَلِّ الشافعيِّ من نفس العلّامة أحمد شاكر؛ فإني أقول في الجاسر ما قاله شاكرٌ في الشافعي في صدر تحقيقه للرسالة:

«وليس الشافعيُّ ممن يترجم له في أوراقٍ أو كراريس».

خَبَرُ الجاسر عندي لا يستوفيه مجلدان كبيران، لكن لما أَلْحف

عليَّ بعض الإخوة بأن أقيّد «شيئاً» مما كنتُ سمعته من شيخنا العلّامة في مجالسه من الفوائد؛ استجبتُ فكتبت ما هنا.

لم يكن شيخنا حمد الجاسر قد صِيغ من النحاس حتى آخذه وأضعه على قاعدة تمثال، ثم أقول فيه ما يقوله كُتّاب التراجم عندنا فيمن يترجمون لهم: «وبعدُ.. فهذا هو التمثال فلان..».

لا؛ لم يكن حمد الجاسر تمثالاً من نحاس، وإنما كان إنساناً من لحم ودم، فيه من ضعف الناس ما في الناس، لكنه كان إنساناً عظيماً، وليس كلُّ الناس فيه من معنى العظمة ما في الجاسر، وهذا هو الفرق بين الجاسر وكثيرٍ من الناس.

وأنا فكنتُ سألتُ أستاذاً ممن خالط العلّامة محمود شاكر وخبر سوادَه وبياضَه؛ سألتُه سؤالاً فهم منه أني أُريد أن أستبطن من خاصّة أمرِ أبي فِهْر ما لا يعرفه كل أحد، فقال لي ـ فيما يشبه العتاب ـ كلمة ما زال صداها يتردَّد في أذني: «لقد أقدرني شيخنا محمود شاكر بتقريبه إياي على أن أرى مواطن ضعفه، فمن اللؤم أن أقوى عليه به»!

وهكذا؛ فليس الذي يصرفني عن تصوير شخصية الشيخ هنا إلا هذا «اللؤم» الذي لا أريد أن أوصَم به؛ لأني إن تحدَّثتُ عنه تحدَّثتُ عنه على ما كان عليه بما هو إنسان، لا على ما في كتب

التراجم عندنا من هذه الغثاثات.

كنتُ سكنت قريباً من منزل الشيخ فشجَّعني ذلك على أن كتبتُ له رسالةً أدبية، ثم ذهبتُ وطرقتُ باب منزله في ليلة من الليالي، وسلّمت الخادم الرسالة بعد أن كتبتُ في آخرها رقم هاتفي، وما هي إلا أيام حتى اتصل بي موظَّفٌ من مكتب الشيخ يستفسر مني إن كنت صاحبَ الرسالة، فلما أجبته قال لي: هذا الشيخ يريد أن يتحدث إليك..

كان الشيخ في السابعة والثمانين من عمره، عضواً في ستة مجامع علمية، مع جُملةٍ من الألقاب ربما فاقت سنيْ حياتي، فلما سمعتُ صوتَه وثناءَه وطلبَه أن أزوره؛ تأثرتُ تأثراً شديداً، وذُهلت عن نفسي حتى صرت أسمع صوتي يتهدَّج ويقول له شيئاً لا أدري ما هو!

زرتُه بعدها بقليل، ثم إنه فتح لي صدره ومكتبته ومجلّته، فكان من أَمَنِّ الناس عليَّ.. وأصبحتُ ولي مع العلم والحياة والناس ما لم يكن لي من قبل.

وما هنا تقييدٌ «يسير لشيءٍ» مما سمعتُه من مجالسه من اللطائف والفوائد؛ إذ تردّدتُ على مجالسه عدة سنوات، كنت ربما جالستُه فيها منفرداً أو في جُملةٍ من الضيوف، وكان الشيخُ موسوعةً ضخمةً

من العلوم والمعارف والتجارب..

لم أر - فيمن رأيتُ من العلماء - أقوى حافظةً منه، ولا أكثر تقلُّباً في الحياة، لا، ولا أشدّ انقطاعاً إلى العلم وتمحُّضاً له..

١- **قال لي الشيخ** ـ رحمه الله ـ: لما ذهبتُ إلى الدراسة في مصر كان يزورني محمود أبو ريّة، ويُكثر من التردّد عليَّ، وكان يكاد يعبد مصطفى صادق الرافعي لكثرة ما يثني عليه..

قال الشيخ: وكانت عندي مشاغلُ واهتماماتٌ يصرفني عنها أبو ريّة بكثرة تردّده وحديثه، فأردتُ أن أصرفه عني، فقلت له يوماً بعد أن أكثر من الثناء على الرافعيّ كعادته:

اسمع يا مولانا: أنا وهّابي، والرافعيُّ يقول يستغيث بالسيد البدوي:

صريعٌ على أعتابِ أحمدَ مكنبٌّ

فيا سَيِّد الفتيان أنتَ له طَبُّ

قال: فغضب عليّ أبو ريّة غضباً شديداً، وقام ينفض يديه وثوبه في وجهي، ولم أره بعدها..

٢- **قال لي الشيخ**: حضر عندي قبل أيام صحفيٌّ يعمل في إحدى المجلات الشعبية، وذكر لي أنهم يوزعون من مجلتهم خمسين ألف نسخة، وأنا لا أُوزِّع من العرب عُشر هذه الكمية..

فقلت للشيخ: نعم، هو صادق؛ لأن التافهين كثر، **فقال الشيخ** في انفعال: هذا كثيرٌ لا يوجد خمسون ألف تافه!

٣- **قال الشيخ**: بعض المؤلفين يكون لقاؤك به سبباً في ترك قراءة ما يكتب.. كنت أقرأ لمصطفى جواد وأودُّ أن أراه، فلما قابلتُه وجدتُه شخصيّةً كَزَّةً مُظلمة.. فكانت رؤيتي له سبباً في الإعراض عما يكتب..

قلت: لعله وقع بين الشيخ ومصطفى جواد ما يقع بين أهل العصر، وإلا فإنّ مصطفى جواد ليس كما وصفه الشيخ، ثم هو كان من أكبر الشخصيات العلمية العراقية في زمنه.

٤- **قال لي الشيخ**: كانت عندي في شبابي أوقاتُ فراغ، ولم أندم على شيءٍ ندمي على أني لم أستغلّها في تعلّم اللغة الإنجليزية، فاحرص على تعلُّمها قبل أن تزحمك الأشغال*.

٥- **قال لي الشيخ**: كان المستشرق الألماني (وستنفلد) وضع فهرساً دقيقاً لنشرته من **معجم البلدان**، وكنتُ علّقتُ عليه، واستدركتُ بعض الأسقاط، ثم إن نسختي من هذا **المعجم** ذهبت مع ما ذهب من مكتبتي في أحداث لبنان.

* لم أفعل وندمتُ ندماً شديداً..

٦- دخلتُ على الشيخ صباحاً في مكتبته، فوجدتُ امرأةً بين يديها أوراق، فلما خرجتْ **قال لي الشيخ**: هذه صحفية في إحدى المجلات النسائية، أجرت معي مقابلة عن المرأة، وقد وافقتُ على إعطائها الحوار حتى توفّق في مجال عملها..

ثم **قال الشيخ**: نُريدهنَّ أديباتِ نَفْسٍ لا أديباتِ دَرْس.

٧- **قال الشيخ**: وِداد قاضي صنعت فهرساً لأحد كتبي، أظنه **قال: كتاب المناسك، قال الشيخ**: هي جيّدةٌ لكن قَلَّ إنتاجُها، هكذا إخواننا أهل الشام؛ إذا بلغوا شيئاً من المكانة العلمية والمادية فإنهم يَفترون عن العلم.

٨- زرتُ الشيخ صباح أحد الأيام، فلما رآني طلب من الموظف عنده أن يحضر كتاباً، ثم **قال** وهو يناولنيه: هذا كتاب ألّفَتْه عنّي مكتبة الملك فهد الوطنية، جزاهم الله خيراً، هم ألّفوه ولم أطلب ذلك منهم، فقلت للشيخ: قد رأيتُ الكتاب، فابتسم **وقال**: أنا صرت كقاضي «جَبُّل»؟ أُروِّج لنفسي، هل تعرف خبر قاضي «جَبُّل»؟ فقلت: لا، **قال**: ذكر ياقوت في **معجم البلدان**: أن المأمون ركب سفينةً على النهر ومعه القاضي يحيى بن أكثم، فلما حاذوا «جَبُّل» إذا رجل يجري على الشاطئ ويشير بيديه ويصيح: يا أمير المؤمنين، نِعْم القاضي قاضينا، نِعْم القاضي قاضي «جَبُّل»، فضحك

يحيى بن أكثم، فسأله المأمون: ما الذي يضحكك، فقال: هذا الرجل هو قاضي «جَبُّل» يُثني على نفسه! فضحك المأمون وأمر له بِصِلَة وعَزَله!

٩- كتبتُ في إحدى المقالات التي نُشرتْ فيما بعد في **مجلة العرب**: «أَفضَل عليَّ عالمُ الجزيرة الشيخ حمد الجاسر»..، ثم عرضتُ المقالة على الشيخ تمهيداً لنشرها، **فقال لي الشيخ**: جزيرةٌ أنا عالمها جزيرةٌ جاهلة، لا، احذف هذا الوصف، يكفي أن تكتب «الشيخ حمد».. هذا يكفي.

١٠- **قال لي الشيخ**: كنتُ إذا حضرتُ جلسات مجمع اللغة في أيام رئاسة طه حسين، وجرى ذكر جزيرة العرب؛ يقول طه حسين: إذا قال الشيخ حمد الجاسر قولاً في موضع من مواضع الجزيرة العربية فالقول قوله، فهو أعلم بها منا..

قال الشيخ: وهذا الكلام مُثْبت في محاضر الجلسات.

قال: وكنتُ إذا دخلتُ على طه حسين يقول: مرحباً بعالم الجزيرة، أو جاء عالم الجزيرة.

١١- **قال الشيخ**: لما زرتُ طه حسين في منزله سألته: يا دكتور: ما كنتم ذكرتموه في كتابكم **في الشعر الجاهلي** هل مازلتم تقولون به؟

قال الشيخ: فقال لي طه حسين: كان ذلك من عبث الشباب..

فقلت للشيخ حمد: إن محمود شاكر ذكر في حاشية أحد كتبه أنه حُدِّث أن طه حسين قد رجع عمّا كان يقوله، وأنّ محمود شاكر علّق على ذلك بقوله: هكذا الكبار دائماً يخطؤون في العلن، ويتوبون في السِّرّ.

١٢- قلتُ للشيخ: سمعتُ أنكم أخذتم إجازة من الشيخ عبدالستار الدهلوي، **قال**: نعم لكني مزَّقتُها!

١٣- **قال الشيخ**: لما حضر الشيخ عبد الحي الكتاني إلى مكة كنت فيمن زاره وكتب لي إجازة.

١٤- سألتُ الشيخ عن هشام بن محمد بن السائب الكلبي واتهامِه بالكذب، **فقال**: أهلُ كلِّ فنٍّ يحملون على أصحاب الفنون الأخرى، وأهلُ الحديث يتّهمون ابنَ الكلبي بالكذب، ولا يروون الأنساب إلا عنه.

١٥- كتبتُ مقالةً وعرضتها على الشيخ فإذا فيها: «ليس في لغة العرب كلمة».. وذكرت كلمةً نسيتها، **فقال الشيخ**: وما أدراك أنها ليست في لغة العرب؟ هل أحطت بجميع اللغة؟ إذا نفيتَ فقيِّد النفي بعلمك وقل: ليس في كذا فيما أعلم.

١٦- سألتُ الشيخ عن حدود «نجد»؟

فقال: يصعب تحديدها بدقّة لكن تحدّد بالتقريب، كُتُب

المواضع المتقدمة ليست دقيقة وفيها صعوبة، فقلت له: ولم اخترتم هذا الفن الصعب؟

فقال رحمه الله: السّهلُ كلُّ أحدٍ يُحسِنه.

١٧ - قال أحد الحاضرين للشيخ في مجلس من المجالس: أَسألُ الله ـ سبحانه ـ أن يرزقنا ربع إرادتك وجلدك يا شيخ، **فقال الشيخ** على البديهة: هي دعوة مقبولة إن أردت!

١٨ - زرتُ الشيخ في آخر أيامه؛ فسلّمتُ عليه وجلست قُبالته، فأخذ يقلّب دفتر الهاتف بين يديه، ثم رفع رأسه **وقال لي**: هذا الدفتر أصبح يخيفني، كلّما نظرتُ فيه وقعت عيني على رقم صديق لي قد توفي..

١٩ - سألتُ الشيخ ـ رحمه الله ـ عن خير الدين الزِّرِكلي ـ وفي مكتبة الشيخ نسخة من **الأعلام** بإهداء الزِّرِكلي ـ **فقال لي**: زرتُه في مصر في المستشفى، وكان هذا المستشفى نظيفاً فخماً، فرأيته ـ رحمه الله ـ سعيداً، يمشي متكأً على عصاه ويقول: سأخرج..

ثم زرتُه بعد أيام في مستشفى ضيق مظلم سيئ كان أولاده نقلوه إليه ليكون قريباً من مسكنهم.. **قال الشيخ**: وأولاده قد بخلوا عليه لأن المستشفى الأول كان ذا أجر مرتفع، فنقلوه إلى هذا المستشفى توفيراً للمال، **قال**: فدخلتُ عليه في هذا المستشفى،

فرأيتُه على صورةٍ كئيبةٍ وكان يبكي، فخرجتُ من عنده وبعد أيامٍ جاءنا خبر موته.

فقلتُ للشيخ: إن أحدَ الكُتَّاب ذكر أن الزِّرِكلي كان يوقّع مقالاته بالأزرقي، وأن الزِّرِكلي قال له: إنه من نسل الأزارقة من الخوارج، ولا عبرة بقول مَن قال: إن المُهلّب أفناهم..

فقال لي الشيخ وهو يبتسم.. هو قال ذلك؟ قلت: نعم، **فقال**: إن الزِّرِكلي أخبرني بأنه من بني زُرَيقٍ من الأنصار، **قال الشيخ حمد فقلتُ له**: يا مولانا لا تبعد النُّجْعة!

***

للشيخ عبدالله مرداد كتاب اسمه **نَشْر النَّوْر والزَّهر في تراجم** المكيين، وقد اختصره الشيخ عبدالله بن محمد غازي (١٢٩١-١٣٦٥هـ) في كتابه **نَظْم الدُّرر في اختصار نَشْر النَّوْر والزَّهر**، ثم إن الشيخ عبدالله غازي نفسه ذيل على مختصره **للنشر** بكتاب سماه **نثر الدُّرر في تذييل نظم الدرر**، و**نظم الدرر** وذيله **نثر الدرر** ما زالا مخطوطين فيما أعلم.

وفي هذا الذيل **نثر الدرر** ترجم الشيخ عبدالله غازي لشيخنا

حمد الجاسر ترجمةً أحسبها من أقدم التراجم العلمية للشيخ الجاسر؛ إذ كانت قبل سبعين سنة..

وهذه هي من **نثر الدرر في تذييل نظم الدرر** ص ٢٩٠: «حمد بن جاسر النجدي»: حمد بن محمد بن جاسر بن علي بن جاسر العالم النّجيب والفاضل الفطن الذكيّ، ولد في سنة ١٣٢٩هـ في قرية من قرى نجد تسمى البُرود، وتلقى فيها مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن في السنة الثانية عشرة من عمره، ثم ارتحل إلى الرياض لطلب العلم، فقرأ هناك على المشائخ [المشايخ] المشهورين منهم: قاضي الرياض الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، والشيخ محمد ابن إبراهيم بن عبداللطيف، والشيخ محمد بن عبداللطيف، والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، وفي ذي الحجة سنة [كلمة غير مقروءة] قدم مكة ودخل مدرسة المعهد العلمي السعودي، وتخرّج منها في سنة ١٣٥٣هـ، واشتغل في وظائف التدريس في ينبع، وفي جدة وغيرهما، ثم تعيَّن قاضياً سنة ١٣٥٦هـ في بلدة ظبا ونواحيها، ثم استعفى منها وارتحل إلى مصر، وزار كثيراً من مدارسها كالأزهر والجامعة وغيرها، ثم عاد من مصر في شهر شعبان سنة ١٣٥٩هـ، والآن هو مشتغل في كتابة بعض مباحث تاريخية أكمل منها: **مختصر معجم البلدان**، ولخَّص فيه المواضع النجدية، وأضاف

إلى ما ذكره ياقوتٌ بعض زيادات من المعاجم المشهورة، وكتاب **أُمراء نجد من قديم العهد إلى عهدنا الحالي**، وتاريخ نجد يحتوي على ثلاثة أقسام كل قسم يقع في مجلد».

رحم الله شيخَنا العلّامة وجزاه عن العلم وأهله خيرَ ما يجزي عالماً.. ولله الدكتور عبدالرزاق السنهوري الذي قال: «وإن شيئاً يشترك فيه أكثر العظماء: حياةُ الشَّظَف والفاقة التي عاشوها أول حياتهم، فنفخت في أخلاقهم روحَ الصَّلابة، فأذاقوا الحياةَ بأسهم بعد أن أذاقتهم بأساءها..».

شَهوة الكلام ومَهاوي الفُتون..

الإنسانُ هو الإنسانُ: يحتاج إلى التجاوب الشعوريّ، يحتاج إلى هذا الفَرَح المقدّس.. تلقاه طفلاً لا تعرفه قد خرج من مدرسته بشهادته فيدفعها في وجهك دفعاً لتقرأها؛ ثم يصيح بك يوم القيامة وأنت في حالٍ غير حاله ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾..

١ - ليس يتجلّد العبد على ربّه.. هذا الشاعر المتمرّد أمل دنقل (ت ١٩٨٣م) وكان ملأ شوارع القاهرة كُفراً وسُكراً وعربدة، حتى قال يُثني على الشيطان أبياته الرجيمة:

المجد للشيطان معبود الرياح

من قال لا في وجه من قالوا نعم..

هذا المسكين الذي طغى لما ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ تقول عنه زوجته عبلة الرويني في كتابها الجنوبي يوم أصيب بالسرطان: «كانت الجراحة

الأولى تعني لدينا الرعب الشديد، فهذه هي المرّة الأولى التي نقف فيها في مواجهة السرطان.

وأنا أسير بجوار (الترولّلي) الذي يحمل أمل إلى غرفة العمليات سمعتُه يتمتم بالشهادة: «أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله»..

ضحكتُ: أمل لقد ضبطتك متلبّساً بالإيمان!

ابتسم في هدوء مردّداً في همس خافت: «أخشى ألا يؤثر فيّ البنج..».

نسيَ في كُربته معبودَ الرّياح الذي قال: لا، وتمتم ذليلاً لربّه: أن نعم، فالمجْدُ لله..

٢ - أنا امرؤٌ ـ إن لم تكن تعلم ـ كباقي خلق الله، كلّما تقدمت بي السنُّ ضعفتْ فيّ الشهوات كلها إلا شهوة الكلام.. وقد رأيتُني في الأربعين من عمري غيري في العشرين والثلاثين، فقد كنت صَموتاً تمرّ بي الساعات لا تفرط مني الكلمة، فأورثني ذلك عُقداً أضخم من تلك التي في حبل السفينة..

واليوم آثرتُ أن أتكلم ـ تخفّفاً ـ ثأراً من تلك الأيام، بل إني سأتحدثُ عن نفسي كثيراً؛ لأني لا آمن جانب أحدٍ إن تحدثت عنه إلا نفسي هذه التي بين جنبيّ.

عهدتُني شديدَ الخجل جدّاً (بين يديَّ كتاب **الخجل** لراي كروزير أكبرِ متخصص في هذا الموضوع في عصرنا الحاضر، فماذا عساه يجدي هذا الكتاب ومؤلِّفه في هذه الطبقات النفسية المتكلِّسة).

يحملني الخجل كثيراً على مداراة الناس، والتكلّف لما لا أطيق.. ليس أثقل على نفسي من الأطفال، ودع عنك **إميل** جان جاك روسّو، وحديثَ الكبار الساذج عن براءة الأطفال؛ كأننا ما كنا أطفالاً، ولا رأينا منهم من هو أشد تلوّثاً من كثيرٍ من الرّاشدين، لذا فإني قَلَّ أن استملحتُ طفلاً، فأنا أعاملهم -بمشاعري- معاملة الكبار، فلا أكاد أحب طفلاً لأنه طفل، لكنّي لا أظلمه أو أسيء معاملته.

وكان دعاني أحد الإخوة ـ خارج المملكة ـ إلى بيته، فلما حضرتُ جلس معنا صبيٌّ له من أكْره من رأيت، قد امتلأ وجهه بالقذارة ووالده الحاني يضمُّه إليه في رقّة بالغة!

فلما حضر العشاء قلت في خاطري: الآن نرتاح منه، فأجلسه يأكل معنا فَغَثَتْ نفسي وكدت أموت تقزّزاً، ثم إن هذا الكريه رفع رجله وغمسها في صحن القشطة، فابتسم أبوه المغفّل تظرّفاً لصنيعه، فأطرقتُ خجلاً، وكرهتُ بعدها هذا الصِّنف من الطعام وكان من أشهاه إلى نفسي.

وهكذا كم كلّفني الخجل أمثال هذه المُدارات ورَهَق النفس،

ومن كان هذا شأنه آذاه الناس من حيث يشعرون ولا يشعرون.

٣- **في كتاب دُرر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة** للمقريزي ٣/ ٧٧، هذا النصُّ الذي وقفت عنده طويلاً، قال المقريزي: «أخبرنا شيخنا المقرئ النحوي شمس الدين محمد بن محمد الغماري رحمه الله قال: أخبرنا شيخنا العلّامة أثير الدين أبو حيان النّفزي رحمه الله قال: ألزمني الأمير ناصر الدين محمد بن جَنْكل ابن البابا بالمسير معه بالزيارة للشيخ المُعتقد أحمد البدوي بناحية طنتدى [طنطا]، فوافيناه يوم الجمعة فإذا به رجل طوال، عليه ثوبُ خوج عالٍ، وعمامة صوف رفيع، والناس تأتيه أفواجاً، فمنهم من يقول: يا سيدي خاطرك مع غنمي، ومنهم من يقول: خاطرك مع بقري، ومنهم من يقول: زرعي، إلى أن حان وقت صلاة الجمعة، فنزلنا معه إلى الجامع بطنتدى، وجلسنا في انتظار الصلاة، فلما فرغ الخطيب من خطبة الجمعة، وأقيمت الصلاة، وقمنا لأداء الصلاة؛ وضع الشيخ أحمد البدوي رأسه في طوقه بعدما قام قائماً، وكشف عن عورته بحضرة الناس، وبال على ثيابه وعلى حصر المسجد، واستمرّ ورأسه في طوق ثوبه وهو جالس حتى انقضت الصلاة ولم يُصلّ»!

قلتُ: انظر كيف تحوّل هذا البوّال إلى موروث مقدّس في الذاكرة الشعبية؛ بفعل الخرافة والارتزاق والبعد عن الدين.

فرحم الله الإمام محمد بن عبد الوهاب، نعم لم يكن نبيّاً؛ لكنه قام بدعوة نبيّ..

٤ - تُشجيني تصاريفُ القدر وموافقاتُه.. كأن يسأل رجل عن قَبرٍ يُحفر: لمن هذا القبر؟ فيدفن فيه.. وكم مرة أحجمتُ عن قولٍ أو فعل خوفَ تصاريف القدر هذه وموافقاته، غير أن القدر غالب، ولا رادَّ لما كتبه الله.

في مقدمة **عصر نابليون** آخر أجزاء **قصة الحضارة** يتساءل وِل وإيريل ديورانت عن سبب إضافة كتابٍ عن حياة نابليون بعد أن ورد في **الموسوعة البريطانية**: «أن ما كتب عن نابليون حتى منتصف القرن العشرين زاد على مئة ألف مجلد»؟

وإن كنتَ قرأت صفحاتٍ من آلاف الكتب هذه؛ فستعرف ـ لا محالة ـ أن نابليون قد أمضى آخر حياته أسيراً في جزيرة «سانت هيلانة».. حتى اقترنت هذه الجزيرة باسمه، فيقال عند الحديث عنها: وهي التي أُسر فيها نابليون وأُجبر على العيش فيها من سنة ١٨١٥م حتى وفاته عام ١٨٢١م.. وكانت لنابليون فيها أشجانٌ وآهاتٌ وحالٌ محزنة، دوّنها بعض مرافقيه في الجزيرة ونشرت فيما بعد.

في كتاب **نابليون** لإميل لودفيج ـ هذا الكتاب من أروع ما كتب عن نابليون ـ وصفٌ لهذا الفتى الكورسيكي الحالم، جاء في بعضه:

«وهذا مع دأبه على تحصيل حرفته بدافعٍ من فقره وعاطفته، وشعوره بأن الخيال يحكم العالم، لكنه بالمدفع يتحقق الخيال..

وهو يدرس المدافع والذخيرة.. وهو يدرس في غرفته بقرب المقهى الصاخب كلَّ شيءٍ قابل للحساب، ويدوّن خطباً بأكملها مما يُلقى في برلمان لندن، ويضع رسماً كروكيّاً لأقصى نواحي المعمورة، وفي ختام آخر كراسة نجد في آخر ملاحظة: «سانت هيلانة: جزيرةٌ صغيرةٌ في المحيط الأطلسي ومستعمرةٌ إنجليزية..»».

٥- رحم الله الأستاذ الكبير أحمد ابن العلّامة محمد ابن مانع.. كان من خيرة من لقيتُ في مجلس شيخنا العلّامة حمد الجاسر رحمه الله.

لم أكن أعرف من يكون أول مرّة شاهدته فيها في مجلس الشيخ، رأيته يتصدّر المجلس ويُحتفى به فظننته أحد الأعيان، فما هو إلا أن تحدث حتى بهرني بأسلوبه وعلمه وخلقه، فعلمتُ بعدُ من هو.

والشيخ حمد يُجلّه، قال لي مرة بعد ثناءٍ عليه: كانت بيني وبين والده أمور وظيفية أفسدت ما بيننا، لكن علاقتي بابنه أحمد لم تتأثر، وهو يزورني لا يقطعني.

إذا تحدَّث الأستاذ أحمد أسرك بحسن حديثه، وسعة اطّلاعه، وبما لديه من اللطائف والغرائب لكثرة أسفاره وتقلّبه في الحياة، ولو لم

يكن منه؛ إلا أنه كان يرافق والده العلّامة، وأنه كان من كبار ملازمي مجلس العلّامة محمود شاكر أيام عمله في الملحقية الثقافية السعودية في القاهرة (ترجم الأستاذ عبد الرحمن الشبيلي ترجمة يسيرة للأستاذ أحمد في كتابه **أعلام بلا إعلام** ص٤٧).

وهو -رحمه الله- كان يتلطّف بي، ويذكر شيئاً مما أكتب، وقد ندمتُ على أن علاقتي به لم تمتد إلى أبعد من مجالس الشيخ.

ثم إنه اعتزل الناس في آخر حياته، ولم يكن ممّن يحب الكتابة والتأليف، فذهب ذلك العلم والفضل.. وكان مما علق في ذاكرتي من فوائده هاتان اللطيفتان:

أ - **قال الشيخ أحمد**: سألتُ الشيخَ محمود شاكر عن الحِمار الوَحْشِيِّ الوارد ذكره في أشعار العرب، فقال لي: ليس هو هذا الحمارَ المخطّط، وإنما هو حمار أبيض أكبر قليلاً من الحمار الأهلي، وفي نحره سواد، وقد انقرض.

قلت: لعلّ هذا النص الكاشف يفيد بعض طلبة العلم، فإنّ الحمارَ الوَحْشِيَّ مما ورد ذكره في السُّنّة، ولم يعرف بعض أهل العلم من المتأخّرين ما المقصود به.

ب - **قال الشيخ أحمد**: انكسر مركبٌ بأهله قرب قطر، فغرق كلُّ من كان في المركب، لم ينج إلا رجلٌ أعمى وابنٌ صغيرٌ له، لما انكسر

المركب أمسك الأعمى بابنه، ووضعه فوق كتفه، فكان ابنه يوجّهه نحو اليابسة وهو يسبح، حتى قطع خمسة عشر كيلاً، ثم نجا هذا الأعمى وابنه الصبي بعد أن غرق كلُّ من في المركب!

٦- انخدعتُ زمناً بروجيه جارودي وأمثالِه، ثم تبين لي أنهم إنما آمنوا بالحضارة الإسلامية، وهذا «الإيمان الحضاري» لا ينفعهم إذا وقفوا بين يدي الله تعالى.

قال صلاح عبد الرزاق في كتابه **المفكّرون الغربيون المسلمون** ١/ ١١٥: «يبدو أن غارودي غير ملتزم بأداء الشعائر الإسلامية، لأنني عندما زرتُه في منزله وحان وقت الصلاة؛ سألتُه عن اتجاه القبلة فلم يستطع أن يجيبني عنه!

أعتقد أن غارودي قد قَبِل الإسلام كنظام أخلاقي وروحي، وليس مجموعة من العقائد والأحكام والتعاليم التي على المسلم الإيمان بها والالتزام بممارستها.. ربما يكون غارودي قد أُعجب بالحضارة الإسلامية أكثر من الدين التي كانت نتاجاً له».

٧- حدّثني بعضُ مشايخي من أهل مصر ممن كان له صلةٌ بالعلّامة المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم رحمه الله، قال: قال لي أبو الفضل إبراهيم: «حين كنت أعود من عملي في دار الكتب كان يركب معي في المواصلات جاري في الحارة مغني المونولوج المشهور

«شكوكو».. وكان كل من رآه يسلّم عليه ويحتفي بـه، ولا يكـاد أحـدٌ يسلّم عليّ أو يعرفني..

قال: ومرّة جاء ساعي البريد يبحث عني ليوصـل إليّ شـيئاً معـه، فأخذ يدور في الحارة من الـصباح إلى قريـب الظهـر مـا عرفنـي فيهـا أحد.. حتى دلّه على منزلي صـاحب مغـسلة الملابـس، وضـاع كلـب «شكوكو» يوماً فخرجت الحارة كلها تبحث عنه»!

قال الشيخ محمد عبد الرحيم بدر الدين في تقديمه لكتـاب **ديـوان المجموع اللطيف في بني نصيف**: «ولقد رأيتُ بنفسي يـوم تـوفي علـمٌ من أعلام الأُمّة، وجبـلٌ مـن جبـال العلـم في عـصرنا، هـو العلّامـة الدكتور محمد عبد الله دراز.. رأيتُ نـشرَ نعيِّـه وخـبرَ وفاتـه في زاويـة متواضعة في ثنايا عمود منزوٍ من صفحة داخلية في بعـض الـصحف، في حين كانت الصفحة الأولى تختنق بعناوينَ ضخمة، وصورٍ متعددة، وتعليقاتٍ مسهبة حول وفاة راقصة مشهورة..».

٨- أَحقٌّ أن السلفية تُطامِن من العقل، وتُزري بالقُـدرة، وتحجُـر على الموهبة؟

وأن الإبداع لا يقاربه قلم الكاتب؛ إلا أن يتمرَّد على إسار الـنص، ويجريَ في أفانين الغواية، ويكسرَ حاجز المقدَّس..

أَحقٌّ أن السلفية تورث صاحبها ذهناً فاتراً، وأداةً خابيـة، وروحـاً

بليدة؟

وأنّ العبقريّةَ إنما تتنزّى من نَفْس الإنسان، والوهَجَ إنما يَلفَحُ في أحرف هجائه، والمعانيَ تأتلق بها روعةُ تراكيبه؛ حين يوصف بكلِّ وصفٍ إلا أن يكون سلفيّاً..

أَحقٌّ أن السلفية تأسر محطَّ النظر فلا يبرح القرطاس الأصفر، وتطمس مجاليَ البهاء فلا يعود الجمال ينفذ إلى مسارب الفؤاد، فهي قَدَر المحرومين.. قَدَر المحرومين من لذاذاتِ العقول، ومدارجِ الثقافة، ومطارحِ الجمال؟

وأن كلَّ أحدٍ إلا أن يكون سلفيّاً: له من أيامه بهجةُ المعرفة، وثراءُ تراثِ الإنسان، ومفاتنُ الفكر، ومَهاوي الفُتون..

لقد حاولتُ من خلال مشروعي الثقافي ـ الصغير ـ أن أُفنّد هذا الشَّغب الصبياني البليد الذي يلصقه أراذل أهل المعرفة بهذه السلفية المباركة، فجعلت قلمي وأيامي ـ على بساطة تجربتي ـ وقفاً على هذا المشروع.

أردتُ أن أثبت أن السلفية تحسن أشياءَ كثيرةً إن هي أرادت، وأنها ليست تطامن من العقل، ولا تورث صاحبها ذهناً فاتراً، وأنها ليست بقَدَر المحرومين من لذاذاتِ العقول، ومطارحِ الجمال.. وأن الإبداع طوع قلم الكاتب ـ إن هو استعدّ ـ دون أن يستطيل على الرّب

والدين، ويتهاونَ بالأصول والمعتقدات..

فذهبتُ أنشئ التأصيل المعرفيّ، أرود الثقافة على اتساع مداها، وأحلّل الفكر في جذوره، وأوظّف الكلام من مظانّه العالية، كلّ أولئك ببيانٍ مشرقٍ وضيءٍ ما استطعت، حاولت أن أنقُض عليهم دعاواهم الواهية، وأدفعَ الفرية التي يصمنا بها سَقَط أهل الفكر حين يردِّدون: أن الخطابَ السلفيَّ بات خطاباً متربِّصاً، ناقداً لُمنجز الآخرين دون أن يُنجز..

لم أُحبَّ أن يذلّني أحدٌ ـ أنا السلفيّ ـ إذلالاً معرفيّاً..

٩ - نصرانيّتان:

أ – من رسالةٍ بعث بها الأمير شكيب أرسلان إلى رشيد رضا: «رجلٌ أرمنيٌّ من وجوه الأرمن وأكابر علاتهم كان منسوباً للسلطان عبد الحميد، وبعد سقوطه فرّ إلى أوربة.. واسمه: أنطون بك كوشه جي أوغلو، له تأليف على حادثة الأرمن، ذكر أن أصلها سياسة أجنبية، وبرهن بالوثائق، وهو متمسك بدينه ومطّلع عليه، قال لي منذ أيام: إن عقيدة القرآن بالمسيح هي أقدم ما قيل في المسيح، قلت له: وكيف ذلك؟ قال: لأن القرآن منذ ١٣٠٠ سنة، والأناجيل الموجودة اليوم ليس فيها على التحقيق ما يتجاوز عمر نسختها الأصلية ٨٠٠ سنة، فإن الأناجيل كانت نحو ٤٠، فاحترقت كلها بحريق مكتبة

الإسكندرية، والباقي منها متأخر تاريخ نسخه عن القرآن بقرون، عدا ذلك عقيدة الإسلام في المسيح مطابقة لعقيدة آريوس تقريباً، باعتبار بنوّة المسيح لله مجازية.. قصدتُ أن أروي لك هذه الرواية لأنها تتعلق بأبحاث **المنار**..».

ب – قال الكاتب والشاعر النصراني أمين نخلة (ت ١٩٧٦م) في كتابه **في الهواء الطَّلْق**: «كلّما قرأتُ القرآن قلتُ لنفسي: ويحكِ انجي فإنّكِ على النصرانية»!

١٠ – كان من فواجِعي أني اكتشفتُ زورَ هذه الأنفس الإنسانية مبكّراً..

كنا نسكن عام ١٤٠٠هـ في شارع الخزان في الرياض قريباً من مبنى التلفزيون، وسمعتُ من بعض مَن كنتُ ألعب معهم في الحارة أنهم يسجّلون حلقاتٍ لبرنامجٍ من برامج الأطفال مشهورٍ في تلك الأيام، وأنهم قد حدّدوا موعداً – بعد الظهر – لحضور التسجيل في يوم معلوم يحضره من شاء.

كانت سنّي بين الحادية عشرة والثانية عشرة؛ ففرحتُ كثيراً أن أرى صورتي قد خرجت على الشاشة (في الكبار اليوم من يفرح كثيراً لهذا!).

ذهبنا أربعة أو خمسة من الأولاد بثيابٍ متّسخة لكثرة ما لعبنا

بالكرة وتمرغّنا في الإسفلت، ولم أكن أنا وأحد الرفقة نلبس الأحذية، مشينا حفاةً حتى دخلنا المبنى، وتوجّهنا إلى أستديو التسجيل، ثم قصدنا آخر الكراسي؛ لأن حالتنا ما كانت تسرّ..

ورأيت ماما.... مذيعة البرنامج شوهاء عابسة تنهر هذا وتصيح في وجه ذاك، قد أجلستْ ولدها على كنب مريح بعيداً عنا يقدَّم له العصير ونحن رصصنا رصّاً كالغنم، ثم حضر الأستاذ صالح.... مخرج البرنامج فاقترب منا وتأمَّلنا في حزم كأنه ضابطٌ يستعرض كتيبةً من الجند، فوقعتْ عينه على قدمي زميلي، فصرخ في وجهه وقال له: تأتي إلى البرنامج متّسخ الثياب حافي القدمين يا قذر، ألا تعلم أن كبار المسؤولين يشاهدون هذا البرنامج، ألا تعلم أن الملك يشاهده.. وتوجّه إليه وطرده شرّ طردة على مرأى منّا ومسمع، فجمدتُ في مكاني ومرّت عليّ لحظاتٌ كأنها الدهر كلّه (هذا في برنامج للأطفال..) إلا أن عينيه تخطّتْني لحسن الحظّ بعد أن وقفتْ عليّ قليلاً..

ثم إنهم أخبرونا أن هناك أنواراً مواجهةً لنا إذا أضاءت فعلينا أن نصفّق، وكنت أحسب أن الأطفال يصفّقون فرحاً من عند أنفسهم.. توارى المخرج خلف الكاميرات والأسلاك، وأخرجت المذيعة من حقيبتها بعض الأدوات وأصلحت من شأن نفسها على عجل وبدأ

التصوير، فابتسمتْ الماما ابتسامةً كاد ينشقّ لها فمها، والمخرج خلف الكواليس يهمس ويوجّه ويشير بيديه في عصبية شديدة،والطفل يخرج للميكرفون في يد المذيعة يُنشد أو يجيب عن سؤال، فتبتسم في وجهه، وتنظر إليه في دفء وحنوّ.. فلما أوقفوا البرنامج للراحة عبستْ المذيعة ـ والله ـ وتغيّرت سحنتها لا أدري كيف، وأنا من هذا كلّه في خوفٍ من أن يقبض عليّ بلا نَعْل، ودهشةٍ من هذا الذي يحدث إلى أن انتهى البرنامج، فخرجنا مسرعين وصاحبنا المطرود ينتظرنا عند الباب في خِزي وغَيرة، وأحسست وأنا أعود إلى البيت بشيءٍ يتكسّر من نفسي ويهوي في مجاهلها فأكاد أغيب، لكن ما كنتُ أدري ما هو في تلك السن المبكرة (قرأتُ فيما بعد لطاغور: ثمّة قَفْرٌ فسيحٌ اسمه القلب، في أعماقه أضعتُ سبيلي).

كان ذلك كلّه: مقابل أن أرى صورتي لثوانٍ معدودات على شاشة التلفزيون، وقد التصقتُ بالكرسيّ وتجمّعتُ خوف أن أُرى .. فيا لبهجة الطفولة..

١١- في كتاب **الهوامل والشوامل** ـــ وهي الأسئلة التي سأَلها أبو حيان التوحيدي، وأجاب عنها مسكويه – هذا السؤال: «سأل أبو حيان: لِمَ أحبَّ الإنسانُ أن يَعرف ما جرى من ذكره بعد قيامه من مجلسه؟».

قلتُ: ثم إن مسكويه أجاب عن سؤال أبي حيان جواباً يصلح له قول بعض العلماء: السؤال ذكر، والجواب أُنثى، فما أتى مسكويه بشيء.

وأما أنا فكنتُ إذا ضمَّني مجلسٌ مع بعض النُّخبة تعجّلتُ الانصراف؛ حتى أترك لهم فرصةً للحديث عنّي!

يا ربّ: أهلكني النّاس؛ فساعدني اللهمَّ حتى لا أتحنَّث لصورتي في محاريب أنفس الآخرين..

***

● **إضافاتٌ عن أحمد البدوي**... «بابٌ من الشِّرك أن يستغيثَ بغير الله أو يدعوَ غيره... وقولُه: ﴿**فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ**﴾ وقولُه: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ الآية. وقولُه: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ**﴾..» عن كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.

١ - قال حسين أحمد أمين: «غير أنه لاشك في أن السيد أحمد البدوي والسيد إبراهيم الدسوقي هما أشهر أولياء مصر، خاصة الأول منهما. يقول الجبرتي في **عجائب الآثار**: إن الناس في مصر اعتقدوا أن نهاية العالم ستحلّ

يوم الجمعة ٢٤ من ذي الحجة سنة ١١٤٧هجرية، فأصابهم الجزع إذ يترقبون حلول ذلك اليوم، فلما مضى بسلام قال علماؤهم: إن الله استجاب في اللحظة الأخيرة لشفاعة السيد البدوي وقَبِل تأجيل قيام الساعة.

وقد كان بعض العامّة بعد أدائهم الصلاة يتحوّلون فَيجعلون من مسجد البدوي قبلتهم، ويصلّون ركعتين أُخريين ثم يتجهون إليه بالدعاء». **دليل المسلم الحزين**، ص١٣١.

٢- في السيرة الذاتية لعالم الاجتماع الدكتور سيد عويس: «وتسميتي (بسيد) لم تكن صدفة، فقد وهبني أبي تحت إلحاح أمي، بإيعاز من زوجة عم أبي أم حسين سكينة إلى (السيد البدوي) لأكون في كنفه وتحت رعايته، تماماً كما كان يفعل أجدادنا الفراعنة، فقد كانوا يُسمّون أطفالهم بأسماء الآلهة ليعيشوا لأنهم في كنفهم ورعايتهم.. ومن أجل تسميتي كان على أهلي من رجال الأسرة أو أسرة أمي أن يسافروا بي وأنا طفل لسنواتٍ إلى طنطا، حيث يوجد مقام ولي الله (السيد البدوي) لتؤدى واجب زيارة ضريحه والتبرك بتجلّيات هذا الولي». **التاريخ الذي أحمله على ظهري (١) الأرض والبذور**، ص٥٤.

٣- في سيرة إمام عيسى أنه: «تعرّف على جانبٍ من كراماتِ الصّوفية وكان يعجب لبعضها، ويسخر من بعضها الآخر، فيسخر من الكرامة التي تقول: «إن السيد البدوي بعد أن مات قام فغسَّل نفسه، وبعد انتهائه من

الغُسل مات ثانية».

وكان الغلام إمام يقول بينه وبين نفسه وهو يقهقه: طيّب يمـوت تـاني ليه، هو غاوي موت.. وإلا غاوي غُسل؟!». شـاكر النابلـسي، **الأغـاني في المغاني**، ١/ ١٨.

٤ - «وكان للسيّد البدوي ساقيةٌ تدار بالعُجول، وكان العِجْـل الـذي يـديرها مقـصداً للنّـاس مـن كـلّ جهـة ابتغـاءَ بركاتـه، فـتراهم يقبِّلونـه، أو يضعون أيديَهم عليه في خشوعٍ وحبّ؛ ثم يرفعونها إلى أفواههم لتقبيلهـا! ولقد شهدتُ هذا بعيني رأسي، وشهده معـي المئـات مـن طُـلّاب المعهـد الأحمدي وروّاد طنطا». الشيخ عبد الرحمن الوكيـل، مجلـة **الهـدي النبـويّ**، عدد (٧)، رجب ١٣٨٤هـ، ص ٣٢.

خاطرةٌ فِطْريّةٌ عن الإبداع

في البداية؛ لستُ ممن يَحفَل كثيراً بما يسمّونه: «البرمجة اللغوية».. هم يريدون أن يجعلوا من جنديٍّ فاشلٍ صلاحَ الدّين في ثلاثـة أيـام؛ لكن بثلاثمئة ريال!

وأنا أريد أن أقول لهم: ما أرخص طبيعة النفس وإبـداع العبقريـة عندكم.. بل ما أجهل كثيراً منكم بحقائقِ الحياة، ونواميسِ الكون، وعِلَلِ الأشياء ونشأتِها وصيرورتِها..

هذه المقالة لم تُكتَب لبيـان الأسـباب التـي تجعـل كثـيراً مـن تلـك الدورات التي تُعنى بحفزِ القدرة وتفجـيرِ كـوامن الـنفس؛ ضربـاً مـن المتاجرة بهزائم الروح، ونوعاً من الارتزاق على وهن الإرادة.. مـستغلّة ـ خلف ستارٍ علميٍّ صفيق ـ قُدْرةَ حياةٍ باتت تَحْطِم فينا معنى الحياة.

ولم تُكتب لتحليل هذه الظواهر الفكرية التي تأخـذ تتمـشّى في

المجتمع بعدوى اللاشعور، ثم يخلّفها أو تخلّفه إلى غيرها ـ ككثيرٍ من الظواهر التي يصطنع فيها المجتمعُ الحِكْمةَ في ضَرْبٍ من الحماقة!- دون أن يكون لها ذلك الأثر الذي ظنّ تحقّقه بها.

لأنّ هذه المقالة لم تُكتب لبيان ذلك كلّه؛ فإني سقتُ هذا التصدير لإيضاح معنى وصفِ هذه الخاطرة ـ في خواطرَ غيرها عسى أن أوفَّق لنشرها ـ «بالفطريّة»، وأنها كذلك في مقابل تلك «الأفكار الصناعية» التي نجدها عند كثير ممن أصبح يتكلَّم عن الإبداع بلا إبداع، وعن شَظَف العيش ورَهَق الحياة بِيَدَيْن رَخْصَتين.. وليس لأنها «ساذَجةٌ» كما يتداعى على الذهن ـ في الغالب ـ عند قراءة هذا الوصف.

فهي فطريّة؛ لأني التقطتُها من ركامٍ من القراءة بلا قصد، وأفدتُها من كثيرٍ مما مُنيتُ به من غير سعي منّي لذلك؛ مع صفةٍ «مدَّعاةٍ» لكن لابد منها ـ كما قال بعض الفلاسفة ـ لكلِّ من يحاول أن يخلع على أفكاره شيئاً من الرَّوْعة والعمق: «التأمّل»!

احذر هاتين الرَّذيلتين:

ثمّة رذيلتان نفسيّتان تلقيان بذورهما في نَفْس الناشئ عند بداية

إحساسه أن شيئاً ما بدأ يستوقف العين عنده أكثر من غيره:

أولاهما: هذه النفس حين تحسّ منها ما تتميّز به عن الآخـرين؛ تذهب تطلب منهم معاملةً خاصّةً تظنها مـن حقـوق هـذا التميّـز ولوازمه.

لكنّ الآخرين ـ وإن شعروا بمزايا هذا المختلـف ـ لا يـسلِّمون له بهذا الحق؛ لما طبعت عليه نفس الإنـسان مـن طرائـق اللـؤم[1].. فتكون المنازعة ويكـون التجاهـل، فتستـشرف نفـس هـذا المتميـز بسبب ضعفها ـ وأن أكثر المبدعين من الطبقة الوسطى فـما دونهـا ـ من يتبناها ليدفع عنها عادِيـةَ هـذا الـصراع غـير المنتظـر، وتتـسع مساحة الأحلام والأماني في البناء النفسي مع التقدم في العمر.

إن أوليّةَ الإنسان وبدايتَه لا تدلان بحالٍ عـلى مآلـه وخاتمتـه.. وأظن أن أحد أهم أسباب إخفاق كثيرين ممن كنا نظن بهم النجاح؛ هو هذا العجز النفسي الذي قعد بالواحد منهم عـن العمـل؛ لهـذا الشعور النامي بالحاجة إلى من يعتني به ويأخذ بيده، وهذا وإن تهيأ لبعض المبدعين في أحيانٍ قليلة؛ إلا أنه ليس بالمطّرد[2] مع كلّ أحد.

---

(١) قال ابن المقفّع: الإنسانُ طُبع على طرائق لؤم، وإنما تفاضل النّاس في مغالبـة طبـاع السوء.

(٢) المطّرد، هكذا تكتب.. ورسمها عند بعض الكتاب «المضطرد» وهـم نـشأ مـن شبهها «بالمضطرب»، وليس في اللسان مادة «اضـطرد» وإنما «اطّرد».

إنَّ سِرَّ النجاح ومَكمَنَ الظَّفَر في هذه الحياة يرجع إلى جملة أمور، من أهمها في نظري:

أن يكون الإنسانُ ذا تفكيرٍ عَمليٍّ يذود به عن ذاته غائلةَ العجز النفسيّ، وأن يوازن بين طموحِه وإمكاناتِه، ثم يعمل ما يستطيعه بما تهيأ له.

هذا يقال لكلّ إنسان، والمبدع أولى من غيره بهذا المعنى لا ريب: «استعن بالله ولا تعجز».

الثانية: النفسُ الإنسانيةُ هي من التعقيد البالغ بحيث إن حصر الدافع السلوكي لها في معنىً بعينه يعد قصوراً في الدرس والاستقصاء[1]، لكن ما من شك في أن السعي لكسب الاحترام الاجتماعي هو واحدٌ من أهمِّ حوافز السلوك في النفس الإنسانية وأخطرِها وأشدِّها أثراً عليها، وإذا شئت أن تتبيَّن مدى تمكّن هذا الحافز من نفسك؛ فانظر كيف يبلغ منها من يتجاوزك في أحد المجالس بفنجانٍ من القهوة؟ وهذا المثل هنا من أضعف ما يستثار به هذا الحافز!

---

(١) ففرويد وأدلر ويونج وغيرُهم من علماء النفس الماديين، وكثيرٌ من دارسي النفس الإنسانية؛ يفشلون فشلاً ذريعاً في حَصْر الدافع.

تريد الحقَّ بلا توريب[1]؟ إنّي حين أتأمل هذا السعي الناصِب الذي يسعاه أكثر هذا الإنسان في حياتنا الدنيا؛ أجد أن جُلَّه إنما هو لتحقيق القيمة التي تحتفي بها الجماعة.

هذا المتأنِّق الذي يتهادى في كلية الآداب لأرقى جامعاتنا اليوم؛ يشبه عندي ذلك المتوحش الذي كان يَخْتِل بحربته بين الأحراش ليجمع رؤوس أعداء القبيلة.

إنّ هذا السعي الناصب لهو برهانٌ وثيقٌ على أثر تحصيل الاحترام الاجتماعي على السلوك الإنسانيّ؛ شهادة آداب أو جمجمة عدو: لا فرق؛ فالطبيعة الإنسانية واحدة، وإن كان ثَمَّ شيءٌ من الاختلاف؛ فهو اختلاف يسير لا يستحق أن يؤبه له!

إن المُبدع في الأطوار الأولى من تكوينه النفسي لينزِع به هذا السعي لكسب الاحترام الاجتماعي أكثر مما عند غيره، فيحتفي بصورته لدى الآخرين احتفاءً زائداً عن حاجة الفطرة، فائضاً عن حدوده الطبيعية؛ فإن هو استمرَّ به صيَّره أسيراً لنظرة الجماعة يتكفّفها المنزلةَ والرفعةَ والتجاوبَ الشعوريّ، وهذا هو السرُّ في شذوذ تصرفات كثيرٍ من المبدعين؛ ذرائع يصطنعونها للفت الانتباه، ثم لا تلبثُ أن تستحيل إلى أمراض نفسية تنتهي ببعضهم

---

(١) التَّوْريب: أن تورّي عن الشيء بالمعارضات المباحات، كذا في القاموس.

ـ في غياب الإيمان ـ إلى الجنون أو الانتحار.

إن استطاع المبدع أن يجتثَّ بذور هاتين الرذيلتين قبل أن تتمكنا من نفسه وتمدَّا جذورَهما في أعماقه فقد هُدي إلى خير، تكون معه هذه الميزة التي اختصه الله ـ سبحانه ـ بها نعمةً يتفيأ ظلالها، لا نقمة يشقى بها؛ فيغدو يذم الناس، ويروح يسخط الحياة بسببها..

ثم إياك ـ أيها المبدع ـ أن تنخدع بقولهم: إن الصعوبة إنما هي في البدايات فقط.. كلّ مراحل الحياة صعبة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، والشأن إنما هو في أن نتعامل مع الحياة على ما هي عليه، لا على ما نريدها أن تكون عليه؛ فإنّها على ما نريدها أن تكون عليه عَصِيّة.

قصّة قصيرة

حُرمة الأشياء المبتذلة

— ١ —

السُّلّم هناك..

حاضر حاضر يا دكتور، سأَصعد عليه وأُصلح الإنارة.

الّلعنة.. لماذا يقضي الذُّباب حاجتَه على المصابيح القديمة؟

أهذا هو مستقبلي؟ كهربائيٌّ في مستشفى قديم بقرية نائية.. وهذا البغل كيف أصبح طبيباً يأمر وينهى، كيف أخطأته لجنة المقابلة فلم تجعل منه طبيباً بيطريّاً.. لا أحد أقدر على فهم الحيوان من هذا الحيوان..

لكني مثقَّف، قرأتُ كتباً لا يستطيع هذا البغل أن يلفظ أسماء مؤلّفيها، لن يحسن ذلك ولو أغرَوه بعشرة أعدالٍ من الشعير.

«في حُلكة ليلٍ بهيمٍ كانت يدٌ تجوس خلال الظَّلام، تجوس في رعشةٍ كرعشة لحنٍ جنائزيٍّ بلّلته أنداءُ ظلمة المقابر، كانت يدٌ تفتّش عن منافذ النور، كانت يدٌ تبحث في الجدار عن فيش اللمبة»!

ما أقبح هذا التجريد الذي أعيشه بعد ذلك الحلم الخافق، كيف جاز أن يتناسب جَلال الأفكار التي أحملها مع هذه الضَّعة المادية التي أحياها؟

الآن يا دكتور، سأنتهي الآن.. هذا المصباح العنيد قد تآكلت قاعدتُه.

لكنّ العقّاد لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية، لابد أن هذه المغفَّلة هي السرُّ فيما أنا فيه، لو تزوّج العقّاد ولم يعشْ عزباً، لو قذفت مثل هذه البليدة في وجهه بثمانية أوغادٍ لكان كهربائيّاً في مستشفى قصر العيني!

كان عملاقاً لا يحتاج إلى سلّم، لم آخذ من العقّاد شيئاً إلا قِصرَ صديقه المازنيّ ودمامتَه.

كهربائيٌّ بائسٌ في مستشفى بقرية، مفلسٌ قصيرٌ ودميم، لو كان صلاح الدّين في مثل ما أنا عليه لرجَمه الناس بالحجارة..

— ٢ —

ألا تستطيع أن تُنجز عملاً كهذا في وقت أقلّ؟

قبّحه الله هذا الكهربائي التافه، عنده سبعة أولاد وأنا طبيبٌ في حجم البغل لكنّي عاجزٌ جنسيّاً..

كم عذَّبني رفاقي الصغار وهم يتطاولون بمدى ما يبلغه بَـولُ الواحد منهم في تلك الأزقّة الترابيّة..

كم عذَّبتني والدتي وهي ترجوني أن أتزوج وعيناها تقولان لي ما لا يقوله لسانها.

حاذر يا دكتور، ابتعد قليلاً.. الصدأ تساقط على كتفك.

مالك ولكتفي، عندي عملٌ كثيرٌ أريد أن أنجزه، ألم تنته بعد؟

كتفي، كم تمنّيتُ أن أحمل عليه طفلاً يملأ لعابُه خدّي.

تلك الفتاة المسكينة، ظننتُ أني سأقوى على زواجي منها بما لم أقو عليه بخيالي، ما أقسى خيبتي في ذلك الصباح.

ما أشدَّ خجلي من نفسي وأنا أداريها حتى تستر عليّ..

كم كرهتُ تشريحَ جُثث الرّجال في المشرحة..

— ٣ —

لكنّي مثقّف.. قرأتُ آلاف الكتب، في صغري لم تكن دمامتي تحول بيني وبين دهشة كلٍّ من تحدَّثَ معي لطلاقة لساني وسرعة بديهتي.. يسألون: ماذا عساه أن يكون حين يكبَر.. لابد أن ذلك الخبيث كان يعنيني بقوله: لماذا يمتلئ العالم إلى هذا الحدّ بهذا العدد الكبير من الأطفال اللامعين؛ والكبار الفاشلين المعدومي القيمة؟

«آه من بؤس النهايات.. آه، لو أغذّ إنسانٌ السير وتوغَّل في مجاهل نفسي لتجمَّد من رؤية هياكل أحلامي المفزعة، لولّى رُعباً من صمت الوحشة يطبق على دروب روحي الساكنة، لجرى لاهثاً من شبح نفسي الشائه؛ يغريه كاشرَ الأنياب بأن يقترب من فمه المملوء بِمِزَقٍ من ملامح وجهي اختلطتْ بعفن الحروف..».

ها هي الإضاءة قد أُصلحت، كانت قاعدة المصباح متآكلةً جدّاً.

أخبرتَني من قبل أنها متآكلةٌ جدّاً، هل نحن في محضر شرطة نعيد فيه ما كنا بدأنا قولَه؟

كانت القاعدةُ متآكلة، والأسلاكُ مرتخية، كنتُ أريـد أن أبـيّن لك لِمَ تأخّرتُ في إصلاحها.

لا حاجةَ لي بهذا البيان أيّها الحقير، أتظنّني عاجزاً جنسيّاً؟

تنبيه:

• ما بين الأقواس في القصة منتقىً من أوراقٍ عُثر عليها في بيت القتيـل، وقـد أُودعت في ملف التحقيق بعد أن كتب عليها المحقّق هذه الملحوظـة الخارجيـة: «في هذه الأوراق بعض الأفكار والأساليب التـي يـصعب عـلى مثـل القتيـل ـ بـسبب مستواه التعليمي ـ أن يكتبها وإن كانت مطابقة لخطّه، لعل هذا يـساعد في الكـشف عن وجود شخصية أخرى تحلّ رموزَ هذه الجريمـة الغامـضة، والـدوافعَ الحقيقيـة وراءها، لاسيما وأن جثة القاتل وُجـدت متحلّلـة في المـاء؛ فلـم نـستفد كثـيراً مـن تشريحها».

•• «لقد وُهبت اللغة للإنسان لكي يخفيَ أفكاره». كاليران

حوارٌ عن القراءة

حوارٌ عن القراءة*

«فـي حوارٍ عن الشَّغفِ بالقراءة وطرقِ التثقيف الذاتي».. عبد الله الهدلق:

القراءة تورث المرءَ اغتراباً روحيّاً، وتُكسبه حَسَد أقرانه

لا يُمكن أن يكـون هنـاك ملـفٌّ متكامـلٌ عـن القـراءة ومحبّـي الاطّلاع في السعودية؛ دون أن يستـصحب تجربـةَ الأسـتاذ عبـدالله الهدلق في التثقيف الذاتيّ، ورحلتَـه مـع القـراءة التـي بـدأت بـاكراً واستمرَّت حتى اليـوم، لا يزيـده مـرور الأيـام إلا شَـغَفاً بملمـسِ الكتاب، والتهامِ ما فيه من أفكار.

* أَجرى الحوار الأُستاذ عبد الحي شاهين، ونُـشر في مجلـة الإسـلام اليـوم، عـدد (٦٥) ربيع الأول، ١٤٣١هـ.

وفي هذا الحوار الذي قُصد منه استعراض تجربة أحد محبّي القراءة البارزين، لتقديمها نموذجاً للشباب المبتدئ في هذا المجال، وتشجيعِ من قطع شوطاً في صحبة الكتب لكي يواصل المسير؛ يتحدّث الأستاذ الهدلق عن بداياتِ تعرّفه إلى الكتاب، وكيف تمكّنت منه هذه الهواية، والطرقِ المثلى التي ينصح بها في القراءة، وما تضيفه للمرء من إيجابيات.. كما يعرض إلى تقسيمات القراءة وغيرها من القضايا المتّصلة بكيفية تكوين الشخص لنفسه ثقافيّاً وفكريّاً..

***

أُستاذ.. أودُّ أن تسمح لي ـ قبل أن أجيب عن أسئلتك المكتوبة ـ بالحديث عن أَمرٍ بات يؤذيني، ويقلِّل من أهمية مثل هذه الحوارات في نظري.. أَصدُقك القول: حين أطالع حواراً من الحوارات الثّقافية؛ فإني أطلب شيئاً آخر يتجاوز المادة الثقافية المطروحة، أريد أن أقفَ على بديهةِ المحاوَر ـ بفتح الواو ـ وثقافتِه الشفهية وشخصيتِهِ الخاصّة..

أعني: أن أرى لِلَحظاتٍ وجهَه الحقيقيَّ بعيداً عن رتوش الصنعة..

لكنّ هذه الحوارات ما عادت تُدار كما كانت تدار سابقاً ـ في الأعمّ الأغلب ـ على هذا المعنى الفِطْريِّ القريب.

أصبح المحاوِر ـ بكسر الواو ـ يهجم على المثقَّف بجيشٍ من الأسئلة المعقَّدة بعد أن يقرأ نِتاجه وتاريخ حياته، ويداوره في ـ خُبثٍ ـ حتى يسقطَه في تناقض، أو يفضَحه باستفزاز..

ثم إنّ المحاوَر يلتفُّ عليه ـ في خُبثٍ قريبٍ من خُبثه ـ فيستعد لأسئلته كما يستعد لبحثٍ علميٍّ مُحكَّمٍ سيلقيه في محفِلٍ دوليّ، حتى إني رأيتُ بعضَ هذه الحوارات الصحفية توثَّق نقولها بالجزء والصفحة.

من هنا تجد أن حواراتِ كثيرٍ من المثقفين المتأخرين أعلى قيمةً علميةً من حورات أمثال: برنارد شو، وبرتراند راسل، وطه حسين، والعقّاد، وحمد الجاسر.. لكنها حواراتٌ أثقلتها الأنا المزوّرة، والرهبةُ من فقدان صورة «المثقّف النّموذج»؛ ففقدتْ تلك البهجةَ والسَّذاجةَ التي كنتَ تجدها في هذا الضَّرْب الجميل من العمل الصحفيّ (ذكرتْ صافي ناز كاظم في مقدِّمة حوارها المنشور مع ألبرتو مورافيا: أنها حين قابلتْه كانت المفاجأة أنه لم يكن هناك مفاجأة! فقد كان شخصية عادية.. كلمتُها هذه أغنتني عن قراءة عدّة كتب للوقوف على شخصيته الخاصة).

لذا سأحاولُ - بعد أن تحنّثتُ كثيراً لنموذجي في محاريب الآخرين فبُليتُ بالخَيبة والهَوان ـ أن أجيبك من قريبٍ بما أنا عليه، من رأسِ القلم هكذا بلا صنعة، بالبَهجةِ والسَّذاجة..

ثم هناك أمرٌ آخر يا **أُستاذ**، وهو أني وقفتُ على حقيقةٍ غريبةٍ من حقائق هذه الحياة: وهي أن حِدّة التأمّل المرهقة، وسعةَ الاطّلاع المذهلة، وتراكُمَ الخبرة الباذخ؛ ربما انتهى بالإنسان في بعض نتائجه إلى ما يقرّره العاميُّ ابتداءً دون أن يتكلّف شيئاً من هذا كلِّه..

لذا فإني لا أرى الآن كبيرَ فائدةٍ في مخاطبة من لا يقرأ (الذي يريد أن يقرأ سيقرأ)..

القراءةُ أمرٌ غريزيٌّ مركوزٌ في فِطَر بعض الخلق ، ومن وُلد بها فإنه سيستميت في تنميتها واستثمارها بدافعٍ قسريٍّ من ذاته، سيطلبُ خُبزَ الرُّوح كما يطلب الجائعُ خُبزَ الحياة..

الحديثُ هنا مع من شغفتْه القراءة لعلّه أن ينتفع شيئاً ما، وأما من لا يقرأ ولا يرغب فما أراه ينتفع (أُفرِّق هنا بين التعليم والشَّغف بالقراءة).

وإنك لتعجب حين ترى أن أكثر من يشتغل بشأنِ الكتاب هم من أبعد الناس عنه: المتخرّجون في أقسام المكتبات، الذين يراقبون

الكتب في دوائر الإعلام في الجمارك، بل إن الشيخ منير الدمشقي ـ رحمه الله ـ قد ذكر في نموذجه: أن أغلب أصحاب دور النشر هم من الجهلة.

لستُ أنسى مسؤول القاعة في إحدى المكتبات العامّة حين كنتُ أتحدّثُ معه عن فوائد القراءة فقال في أسى: ولكن أين الوقت؟

***

• من يتابع كتاباتك يستشف أن لك تاريخاً طويلاً مع القراءة والاطّلاع ، فمتى تمكّنتْ منك هذه الهواية؟ وما هي العوامل التي ساعدتْ على تأصيلها في نفسك؟

درستُ السنواتِ الثلاث الأولى من المرحلة الابتدائية في مدينة دُبيّ من الإمارات العربية (١٣٩٤هـ وما بعدها) حيث كان والدي ـ أطال الله في عمره على الخير ـ يعمل مدرِّساً في إحدى مدارسها موفَداً من وزارة المعارف آنذاك.

كان تلفزيون دُبيّ يعرِض برنامجاً لطيفاً للأطفال اسمه: «كَلِيلة ودِمْنة» يحرّك بالعرائس..

دخلتُ يوماً مكتبةً تجاريةً كانت مجاورةً لمدرسة عمر بن الخطاب التي أدرس فيها؛ فوقع بصري على كتاب عنوانه **كَلِيلة ودِمنة** فاستهواني هذا التشابه في الأسماء، ولما نجحتُ من الثانية الابتدائية إلى الثالثة خيّرني والدي ـ جزاه الله خيراً ـ في هدية النجاح (لستُ مدلّلاً إلى هذه الدرجة، فقد ضُرِبتُ ضَرْباً يشبه ضَربَ الفِراش لنفض الغبار عنه!) فطلبتُ منه نسخة من هذا الكتاب بعد أن أخبرته أين شاهدته، فذهب بي إلى المكتبة، ولما أنزل البائعُ الكتابَ من على الرّفِّ صُعِقتُ لحجمه وغاضَتْ فرحةُ الهدية، وخجلتُ من والدي أن أتراجع، فذهبتُ به إلى البيت أقلّبه لا أكاد أفهم من قصصه الرمزية شيئاً...

لكن كانت هذه هي بداية الرّحلة، ثم إني تردّدتُ على مكتبة المدرسة لما انتقلنا إلى الرياض في السنة الرابعة الابتدائية وما بعدها، وأسعدني الحظُّ فوقفتُ على أعمالٍ للأديب الكبير كامل الكيلاني موجّهةٍ إلى الأطفال مشكولةِ الكلمات، فوسّعتْ قراءتها الخيال لديَّ، ونمَّت السليقةَ اللغوية، لكنها كانت أرفع من مستوى الطفل (قرأتُ فيما بعد أنّ هذا مما أُخذ على مؤلفات كامل الكيلاني) إلا أن كثيراً من ناشئة العرب في أيامٍ سالفةٍ قد تخرّجت بتراث هذا الأديب الكبير الذي جُهل قدره اليوم..

ما زال عندي ـ بعد ثلاثين سنة ـ بعضُ هذه الكتيبات التي استعرتُها من مكتبة المدرسة، ولن أُعيدها إلى وزارة التربية والتعليم إلا بحكم قضائي!

وهكذا في مكتبة المتوسطة وأوائل الثانوية، ثم انقطعتُ عن القراءة في المراهقة عدّة سنوات بائسات، فلما كنتُ في الحادية والعشرين من العمر فتحتُ بابَ المكتبة وأغلقتُ بابَ الدنيا ورائي...

• **هل لك طريقةٌ أو مذهبٌ معيَّنٌ في القراءة؟ (ما هي الطريقة التي تقرأ بها)؟**

أظنّ أن طرق القراءة تتشابه بين القراء، وأما الاختلاف الكبير فهو في طرق الكتابة.

ليس لديَّ شيءٌ غير عاديٍّ فيما يسمى «بطقوس القراءة».

• **أيّهما تفضّل عادةً، قراءة الكتاب بشكل كامل أم أجزاء منه؟**

إذا كان الكتاب مترابطَ الأجزاء؛ فإن قراءة أجزاء منه دون جميعه تكون مُخلّةً بمادّته، وأما قراءة الكتاب إذا لم يكن كذلك كبعض المقالات المجموعة التي ليس بينها رابطة وما شابهها؛ فلا بأس، لا بأس بقراءة أجود ما فيها.

• **يُشدّد البعض على أن القراءة الناجحة هي التي تكون بصحبة القلم،**

وتدوينِ تلخيصات لما يقرأ.. ما رأيك في هذا القول؟ وما المنهجية التي تلتزم بها في القراءة؟

إذا كانت القراءة للمتعة فلا معنىً لصحبة القلم، هل تأخذ القلم بين يديك وقتَ القراءة لتضع خطوطاً حمراء تحت هلوسات أنيس زكي في **ثرثرة فوق النيل**؟ أو ما تحدَّث به علاء الأسواني عن شخصية شيماء محمّدي في روايته **شيكاغو**؟

وإما إن كانت القراءة للفائدة مع المتعة ـ وهذا قليلٌ بين القراء ـ فتستحسن صحبة القلم لتعليق فائدة من الكتاب أو تقييد شاردة، وأما أنا فلا أقرأ بصحبة القلم أبداً، وقد كنتُ لا أنسى موضع الكلام من الصفحة مهما تباعدت الأيام وكثرت المجلدات.. وأما اليوم الحاضر - ومع أني ما زلتُ صغيراً نسبياً - إلا أن ذاكرتي قد تغيرتْ عليَّ كثيراً فما هي بالتي كنت أعهد، أصبحت الحافظة لافظة..

لكن الحقيقة أني لم أندم على عدم التقييد، وليس لدي نيّةٌ لصحبة القلم أثناءَ القراءة ، لأني غير مستعد نفسياً لمثل هذا (ما لي خلق) كما تقول العامة.

وعلى ذكر التعليقات على الكتب؛ فإني لم أقرأ أجمل ولا أحفل من تعليقات أحمد خيري على كتبه على الرغم من شطحه المعروف،

وكنتُ صوّرتُ شيئاً من تعليقاته العالية لنشرها ثم لم أنشط لذلك.

• **غير اكتساب الثقافة.. ماذا يمكن أن تضيف القراءة بالنّسبة للشخص؟**

ستضيف له القراءة اغتراباً روحيّاً ولا سيما في المجتمعات الجاهلة.. (حدَّثني أحد فضلاء المشايخ: أنه أقيم في العراق في تلك السنوات معرِضٌ للكتاب، افتُتح المعرِض في الساعة الثامنة صباحاً، فلما وافى الظهر لم يكن في المعرِض كتابٌ واحدٌ!

كان الشعب العراقي الكبير من أكثر الشعوب العربية قراءةً وعنايةً بالكتاب، وقد ذكر الكتبي العراقي المشهور قاسم الرَّجَب في مذكّراته أنه وُزِّع من كتابٍ لعلي الوردي ستة آلاف نسخة في أسبوعين).

نعم؛ ستضيف القراءة للمرء حسداً كثيراً من أقرانه لازدياد كميّة الإنسان فيه، وتجاوزِهم بنموِّه العقليّ، وستفقده القدرة على إقامة العلائق الاجتماعية والتكيف مع الناس، ستضيف له معرفةً جيّدةً بشركات نقل الأثاث؛ لكثرة تنقّله بمكتبته من بيتٍ قديمٍ إلى بيتٍ أقدم منه؛ ليتحيّفَ فارِق الإيجار حتى يشتريَ به كتباً تتراكم فوق خيباته.. هذا بالإضافة إلى قدر لا بأس به من زيادة حجم العدسات... في كثيرٍ كثيرٍ من المزايا والفضائل التي لا يجمُل بي

ذكرها في مثل هذا المقام يا أستاذ.

• **من هم ـ في رأيك ـ من يمكن وصفهم بأنهم من كبار القُرّاء، والشغوفين بهذه الهواية من الأسماء المعاصرة في السعودية حاليّاً؟**

هم الذين يرتادون المكتبات بلا ذكر أسماء، ولا شك أنه لن يكون فيهم ـ مع الأسف ـ كثيرٌ من كبار الأكاديميين وأساتذة الجامعات، على كثرة ما تردّدت على المكتبات العامة والتجارية إلا أَني قَلَّ أن رأيتُ واحداً من أبناء هذه النُّخبة العاجيّة..

كنتُ في مجلسٍ من مجالس شيخنا العلّامة حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ فانفعل الشيخُ إثر نقاشٍ مع بعض الحضور، فقال له في لهجته الفصيحة المحبَّبة: يا مولانا؛ لا تحدِّثْني عن عاميّة من لا يقرأ ولا يكتب؛ حدِّثْني عن عاميّة أساتذة الجامعات؟

• **كيف يمكن للمرء أن يعوِّد نفسه على القراءة والاطّلاع؟**

أوَّل خطوة لتحقيق الحلم؛ الاستيقاظُ منه.. يمكن للمرء أن يعوِّد نفسه على القراءة والاطلاع بأن يقرأ ويطّلع، أعني بأن يمارس ما يريد أن يكتسب عادتَه، فإن كان عنده قابليّةٌ لمثل هذا فإنه سيلزمه وينتفع به.

اقرأ ثم اقرأ ثم اقرأ كما كان يقول مارون عَبّود.

كان رشاد عبدالمطلب ـ وهو واحدٌ من كبار القرّاء ـ يدور على

المطابع في القاهرة يقرأ ما طَبَعوه من مَلازِم الكتب؛ لأنه لم يكن يستطيع الصبر وانتظار الكتاب حتى يتمّ طبعه وتجليده.

أخبرني أحدُ أساتذتي ممن كان يحضُر مجالسَ العقّاد؛ أن العقّاد قَصَّ عليهم بأنه كان في طفولته يقرأ أوراق الجرائد التي تُلَفُّ بها السندوتشات.

كان العقّادُ من كبار القرّاء في عصره، قرأ أكثر من خمسٍ وستين سنةً قراءةً عاليةً جادّة، وفي الليلة التي توفي فيها كان يقرأ كتاباً عن **جيولوجية إفريقيا**.

كان العظيمُ ابنُ تيميّة إذا مَرِض استشفى بمطالعة كتب أهل العلم، كما أخبر عنه تلميذه المولَع بالكتب الحافظ ابن القيِّم، وكذا رُوِيَ مثلُ هذا عن الشيخ زكريا الأنصاري.. أولئك هم الناس.

• يقسّم البعض القراءة إلى أنواع.. القراءة السريعة، والقراءة المتفحّصة وغيرهما.. عمليّاً هل هذه التقسيمات صحيحة؟

اسمع يا أستاذ؛ لا أحبُّ مثل هذه التقسيمات ولا أحفل بها، هذا كلّه من عَبثِ دورات تطوير الذّات بعقول الناس.. وارتزاقِ دور النشر على وهن إرادتهم وأحلامهم الساذجة.

القارئ يكتسب مهارات القراءة مع الممارسةِ وتراكمِ الخبرة

ومطاولةِ الأيام.. هذه تكتسب تلقائيّاً بجهد فطري ولا تحتاج إلى هذا كلّه، ثم هناك الاستفادة من تجارب من سَبَق في هذا المجال، وهي تُحصَّل بِيُسْرٍ من خلال قراءة الحوارات واللقاءات وما كُتب في هذا من صفحاتٍ قلائل، لا يحتاج الأمر إلى مبانٍ ودوراتٍ وشهادات، ثمّ إلى شهاداتٍ في التعريف بهذه الشهادات.. وتكثُّرِ جاهلٍ، وضَحِكٍ على البسطاء من القراء بهذه الأنواع والتقسيمات والجداول والأسهم..

أتمنّى على من يسعى لتثقيف عقله أن يراجع بعينٍ فاحصةٍ كثيراً من القِيَم التي تحتفي بها الجماعة، أتمنّى ألا ينساق وراءها دون نظر واعتبار..

هل القراءةُ السريعةُ قيمةٌ يحتاج القارئ العادي إلى تحصيلها؟ كيف تروج دوراتٌ لسرعة القراءة في مجتمعٍ لا يقرأ أصلاً؟

اطّلعتُ على كتابٍ ضخمٍ من هذه الكتب التي تُعلِّم الإنسانَ مهاراتِ القراءة وهو بالسِّعْر الفلاني.. وأنا أجزم أن القارئ لو قرأ كتاباً بهذه الضخامة في **فن الطبخ** فإنه سيكتسب تلقائيّاً كثيراً مما يقرّرونه في هذا الكتاب، وسيزيد عليه بمعرفة تحضير بعض الأطباق الشهيّة!

هذه الشركات الرأسمالية هي التي تدير مثل هذا العبَث الثقافيّ،

هي تتعامل مع الإنسان بوصفه «مُستهلِكاً ثقافيّاً» بالطرق نفسها التي تتعامل بها معه في ترويج الشامبو ومزيل البقع والكوكاكولا..

• في رأيك؛ كيف يمكن أن يستفيد المجتمع من إقبال شريحةٍ من الشباب على عادات القراءة والاطّلاع؟ بمعنى هل هناك فوائدُ معيّنة يستفيد منها المجتمع الذي تَكثُر بين شبابه عادات القراءة؟

وعدتُك في البداية أن أجيبك بالبهجة والسذاجة، لذا لن أتحدَّثَ عن ثنائية المثقّفِ والمجتمع، والمثقّفِ والسُّلْطة، لأنها تحتاج إلى مزيدٍ من القراءة والدَّرْس (في مكتبتي خمسة كتب اشتريتُها قريباً تدور على هذا الموضوع، لم أفرغ من مطالعتها بعد).

هذه الثنائية باتت تشغل بال كثيرٍ من مثقّفي اليوم.

أظنُّ أن استفادة المجتمع من إقبال شريحةٍ من الشباب على القراءة مرتهنة بحال هذا المجتمع وقابليته الثقافية، ثم يتداخل هذا كلُّه في علاقة جدلية معقّدة مع نوع السُّلطة التي تحكم المثقف والمجتمع، ها أنت ترى أن الإجابة على هذا السؤال أعمق بكثيرٍ مما يبدو على ظاهره، بل إنها ربما أوردت المهالك.

• هل ثمة استفادة يجنيها المرء من التعرف إلى عاداتِ كبار المثقّفين وطرقِهم في القراءة والتثقيف الذاتيّ؟

أختم هنا ـ ما دام أنه تردَّد كثيراً لفظُ المثقّف في هذا الحوار ـ بذكر معلومة استغربت منها، وهي أني قرأت في كتاب **مقالات ممنوعة** (**ممنوعة** وليس منوَّعة) لسلامة موسى قوله: أنا أول من استخدم لفظة الثقافة بمعناها المعاصر من وحي كلامٍ لابن خَلدون.

لا أدري عن صحة ما قاله لكنّه كلام غريب.. لأن هذا المصطلح بمعناه المعاصر أصبح من أكثر المصطلحات دوراناً على أقلام (ماذا أقول: على أقلام المثقّفين؟).

عوداً على السؤال: لاشك أنّ كلَّ صاحب خبرة وتقدّم في أي مجال من مجالات الحياة يقف على ما لا يقف عليه المبتدئ، والقراءة ليست استثناءً من هذا، لكن هذه العادات منها ما هو شخصيٌّ خاصٌّ فلا أدري هل يستفيد المرء من التعرف إليها أم لا؟

وأما العادات التي ثبتت مع الأيام بعد تكرار تجربة الصواب والخطأ ونفي الخطأ؛ فالتعرف إليها نافعٌ لاشك.

إلا أنَّ أعظم استفادة يجنيها المرء وتتجاوز أهميّتُها كلَّ خبرة يستفيدها ممن سبقه؛ هي ما كان من حصيلة ممارسته هو، أذكر هنا كلمةً لهيجل تختصر هذا كلّه وهي قوله: **الخطأ مرحلةٌ من مراحل الصواب**.

أشكر لكم احتفاءكم بأمرِ الكتاب وشأنِ القراءة، في هذا العـالَمَ العربيِّ المملوء بالقبح والفجاجة، وعسى ألا أكون قـد أشـبهتُ في هذا الحوار الاقتصاديَّ اليهوديَّ ريكاردو الذي قال عنه برناردشو في خاتمة كتابه **دليل المرأة الذكية**: «كان يتميّز بِسمةٍ عجيبة: أن يقول عكس ما يقصده، في الوقت الذي يحاول فيه على نحو ما؛ أن يجعـل قصدَه واضحاً».

الفهرس

- المقدِّمة ٧
- سلفيّة متجدِّدة أو المجتمع المدني ١٧
- عن ابن تيميّة أتحدّث ٢٢
- بئسَ هذا الناس ٣٠
- فوائدُ من مجالس شيخنا العلّامة بكر بن عبد الله أبو زيد ٤٠
- ثنتا عشرة ٥٣
- خواطرُ حول كتابات أبي عبدالرحمن ابن عقيل ٦٥
- الشّعور بالنقص الحضاريّ ٧٣
- عيون ريتا والعُزّى ٧٩
- خاطراتٌ عن الطوابير والأمثال ٩٤
- عنوان الشَّرَف الوافي وإبداع الحضارة الإسلامية ١٠٧
- رهبةُ الموت وجَلال الأحياء ١١٥

- من مجالس عالم الجزيرة الشيخ حمد الجاسر ١١٩
- شَهوة الكلام ومَهاوي الفُتون ١٣١
- خاطرةٌ فِطْرِيّةٌ عن الإبداع ١٤٨
- حُرمة الأشياء المبتذلة «قصّة قصيرة» ١٥٥
- حوارٌ عن القراءة ١٦٣

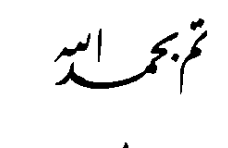

* * *

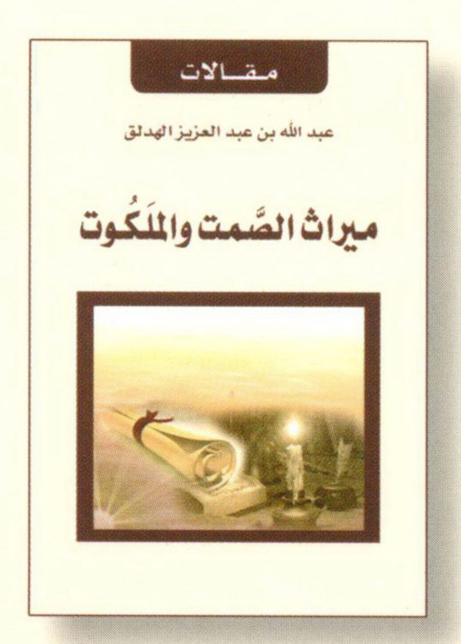

أَتعرف.. قبل ثنتين وعشرين سنةً انتبهتُ فإذا الدنيا قد طمرتْ روحي بِطين القُبح والخَيبة، قد غمرتْها بالماء الآسن.. فأمضيتُ عدّة أشهر تجمّعتُ خلالها في زاوية مظلمة من زوايا روحي، وذهبتُ أنزف الصمت والحياة ببطء، أغلقت عينيّ، وظننتُ أنها نهاية حياة ابتدأت قريباً لتوّها.

لكنَّ المِحَن - كما قيل - معلِّمٌ كبير، وإن كان هذا المعلِّم يتقاضى غالياً ثمن دروسه، لا أدري كيف دبّت حياةٌ في جِذع ذاك الرّوح اليابس، نورٌ أَوْمَضَ لي في غَيْهَب الملكوت.. فتوكأتُ على نفسي ومشيتُ أرقبه لا ألوي على شيء، خضتُ الغَمَراتِ أقصِد نحو فكرةٍ مبهمة، فكرةٍ تقارب في وَعْي حَذِرٍ ما تشبه فلسفتُه أن تكون: القراءةُ بديلٌ عن الحياة..

الثّورة على بؤس الطّين؛ ذلك ما أدعوه تَوثُّبَ الرُّوح للشخصية النّامية في مفاصِل حياتها الكبرى.. يوم تعرَّت روحي؛ بصقتُ الماء الآسن في وجه الدنيا، وطَفِقْتُ أخصِفُ عليَّ من ورق المعرفة.